الفصل الأول

الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية

١- توطئة

عرفت النظرية اللغوية طائفة من الثنائيات المفهومية التي ارتبطت بنظريات ومناهج في الفكر اللغوي والتي تطول بها القائمة[١]. كان فردينان دوسوسير F.de Saussure قد ميز ـ كما هو معلوم ـ بين اللغة Langue والكلام Parole . اللغة عنده مخزن مملوء بأعضاء من مجتمع معين عبر استعمالهم النشيط للكلام . ليست اللغة وظيفة أو عملا للمتكلم ، بل هي إنتاج تمثله بطريقة مجهولة[٢] . أما الكلام فهو الجانب الأدائي التنفيذي . والأداء فردى دائما ، والفرد سيده الدائم[٣] . وقد بنى دوسوسير على ذلك مقولته بأن اللغة اجتماعية والكلام فردى ، وأن اللغة

---

(١) من بين هذه القائمة نذكر مثلا :

النظام العام Usage / الاستعمال الفردى Use ، والجملة Sentence / المنطوق Utterance ، الحدث القولى / Locutionary الحدث الإنجازيIllocutionary act ، علم الدلالة Semantics/ التداولية Pragmatics . ويرى بركله Brekle أن ثناية اللغة / الكلام التى ارتبطت بدوسوسير ، كانت قد عرفت ـ على نحو ضمنى على الأقل ـ فى أعمال أقدم من دوسوسير ، مثل : علم اللغة Sprachwissenchaft الذى ميز فيه صاحبه جابيلينتز Gabelenz (1901) بين اللغة والكلام ، أو بين النظام اللغوى والكلام الفعلى . انظر فى تفصيل ذلك :

Brekle, Herbert : Semantik, Uni / Taschenbuecher, 2 Verb. Auflage Wilhelm Fink Verlag- Muenchen (1972) s.50.

(٢)دوسوسير ، فردينان : فصول فى علم اللغة العام ، ترجمة دكتور أحمد نعيم الكراعين ، دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية (١٩٨٥)ص٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص٣٦ ..

أساسية والكلام ثانوي[١] .

وفي عام ١٩٧٥ عاد نوام تشومسكى N. Chomsky إلى التمييز بين النظام الذي يصنع الإطار اللغوي للمجتمع والنشاط الذي يتحرك مع الأفراد في تفاعلاتهم داخل هذا الإطار . عرفت اللغة عنده بالكفاية Competence وقوبل الكلام بالأداء Performance . الكفاية عنده تعنى معرفة المتكلم بلغته ، والأداء ما ينتج عن هذه المعرفة من كلام متحقق في مواقف ملموسة. نعنى هنا ببحث مشكل الكفاية في النظرية اللغوية . كان شأن مفهوم الكفاية التشومسكية شأن النظرية التحويلية ذاتها. بينما الرأي عند سامبسون Sampson فى النظرية التحويلية أنها كانت تطورا مشئوما في علم اللسانيات[٢] ، ترى ميلكا إفيتش أنها دخلت بالنحو الحديث أهم مراحل تطوره ، وأن صدور كتاب تشومسكى « البني النحوية Syntactic Structures » في عام ١٩٥٧م كان أهم الأحداث اللسانية في السنوات الأخيرة[٣].

والحق أن مفهوم الكفاية قد شغل اللغويين المعاصرين منذ أن أدخله تشومسكى إلى الآن . يبدو هذا فيما أدى إليه من جدل ونقاش ومحاولات تعديل وإعادة صياغة ، كما يبدو فيما خلفه من كفايات أخرى وفيما أثراه من أفكار ومفاهيم جديدة بين مناهج لغوية مختلفة .

فضلا عن الكفاية الاتصالية التي تقف – على نحو ما سنرى – موقف الند

---

(١) المرجع نفسه ص٣٧ .

(٢)سامبسون ، جفري : مدارس اللسانيات : التسابق والتطور ، ترجمة دكتور محمد زياد كبة ، النشر العلمي والمطابع ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض (١٤١٧هـ) ص١٧١ .

(٣)إفيتش ، ميلكا : اتجاهات البحث اللسانى ، ترجمة دكتور سعد مصلوح ، ودكتورة وفاء كامل فايد ، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة (١٩٩٦م) ص٣٨٠ .

الصريح لكفاية تشومسكى اللغوية ، صار مفهوم الكفاية مفهوما مثمرا في كثير من التراكيب ؛ فهناك ما يسمى الكفاية التفاعلية interaktionale Kompetenz ، وهي – في تعريف أوكزار Oksaar – قدرة الشخص على إنجاز العمليات الاتصالية اللغوية وغير اللغوية متكلما ومستمعا ، وفاق مواقفها وتبعا لقواعد الجماعة الثقافية الاجتماعية والنفسية الاجتماعية . ويبني البحث في الكفاية التفاعلية على أساس القانون التالي:

«من يقول ماذا في أي قناة لمن بأي تأثير ؟» .

وينبغي في عملية التفاعل تحقيق التطابق التداولي والسيميائي والمحافظة عليه ، كما ينبغي مراعاة السياقات الثقافية (١).

وقد كان لرواد الإثنوميثودولوجيا (المنهجية الشعبية) عناية خاصة باختبار الكفاية التفاعلية في التفاعلات اللغوية ؛ مثل شيكوريل Cicourel . يرى شيكوريل أن الصغار يدركون الوضع Status الذي يكون عليه البالغون في إنجازهم التفاعلات الاجتماعية ، على رغم ما يكون لها من خواص موقعية . إنهم يستخدمون – في هذه الحالة – التنويعات اللغوية ، ويعرفون الضوابط المعيارية ، ويراعونها ، ويؤدون أدوارهم الكلامية أداء مناسبا ، وينصتون ، ويقاطعون ، ويستهلون مخاطبات وينهونها على نحو مناسب ، ويتهيأ لهم تعبير الوجه الصحيح ، والسلوك الجسدي المناسب ، ونبرة الصوت المناسبة (٢).

كذلك يشير كل من هاينمن Heinemann وفيفيجر Viehweger ، في إطار

---

(١) Lewandowski, Theodor: Linguistisches Woerterbuch 2, Quelle U. Meyer Heidelberg, 6. Auflage. Wiesbaden (1994) S. 476 .

(٢) Lewandowski, op. Cit., S. 476 .

عرضهما استراتيجيات تشكيل النصوص الكبرى ، إلى ما يسمى بالكفاية الموضوعية Sachkompetenz . وهي قدرة المؤلف – في تصميمه نصا كبيرا – على تحديد ما لديه ليقوله ، وما ينبغي أن يصل إليه عند طوائف بعينها من القراء . ويحتاج ذلك – كما يذكران – إلى نفس طويل واستراتيجية ممتدة الأمد . ومن ثم، جعلا الكفاية الموضوعية والكفاية الاتصالية فروضا ضرورية لكتابة النصوص الكبرى [١] .

وفي نظرية إنتاج النص وتلقيه يذكر سوونسكي Sowinski نوعين آخرين من الكفاية ، هما الكفاية النصية Textkompetenz ، والكفاية الدلالية Semantische Kompetenz . يعني الأول ببحث اكتساب اللغة اكتسابا لغويا نفسيا ، وملاحظة المقدرة على تشكيل النص عند الطفل ، وملاحظة تطور الجمل المكونة من أكثر من كلمة واحدة عند الطفل الصغير في عامه الثالث [٢] . ولا تعني الكفاية النصية عند دويوجراند التمييز فقط بين النص واللانص ، بل يتضمن مفهوم الكفاية النصية طائفة من المعارف والإجراءات ، مثل: معرفة رصيد البدائل Options في النظم الافتراضية ، ومعرفة قيود النظام الخاصة بانتقاء البدائل أو تلافيها ، ومعرفة المعتقدات والمعلومات الشائعة في المجموعة الاتصالية أو المجتمع عن العالم الحقيقي ، ومعرفة أنواع النصوص ، وإجراءات استخدام النظم الافتراضية عند تفعيلها actualization ، وإجراءات إنتاج النصوص ، وإجراءات استقبال النصوص ،

(١) Heinemann, Wolfgang – Viehweger, Dieter: Texlinguistik, Eine Einfuehrung, Max Niemeyer Verlag Tuebingen (1991) S. 251.

(٢) Sowinski, Bernhard: Textlinguistik, Eine Einfucharung, Max Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart- Berling- Koln- Mainz (1983) S.58

وإجراءات المحافظة على النصية ... إلخ[١].

أما الكفاية الدلالية ، فهي تمكن مستمع النص وقارئه من عمليات التجريد أو استنباط المعنى Abstrationen والتي تتيح له تقديم معلومات مناسبة أخرى من معرفته على أساس موضوع معروف من قبل . ومما يؤدي إلى تنمية القدرات اللغوية ، لا سيما تنمية الكفاية النصية ، استقاء الموضوع من قدر من المعلومات المنظمة تنظيما نصيا في إطار تلقي النص ومن استنباط الموضوع استنباطا ضمنيا في إطار إنتاجه[٢].

من ناحية أخرى ، تنطلق النظرية اللغوية النفسية المعاصرة من ضرورة الزعم بأن مستخدم اللغة لديه معرفة بنائية ضمنية implicit structural knowledge ، وهدفها تشخيص مثل هذه المعرفة المسماة بالكفاية اللغوية . ينبغي للنظرية اللغوية النفسية الكاملة أيضا ، أن تبين كيفية دخول هذه المعرفة في طور الاستعمال ، فيما سمى بالأداء اللغوي[٣]. ويمكن القول بأن نشوء علم النفس اللغوي مدين

---

(١) دو يوجراند ، روبرت: النص والخطاب والإجراء ، ترجمة دكتور تمام حسان ، عالم الكتب – القاهرة (١٤١٨هـ – ١٩٩٨م) ص ١١٠-١١١ .

(٢) Sowinski, op. Cit., S. 95

ويميز إيكو Eco بين نوعين من الكفاية الدلالية:

- يسمى الأولى قاموسا: إنه التعريف المجرد والقاموس الأوَّليّ لمفردة .
- ويسمى الأخرى موسوعة ، وهي التعريف الثقافي الملموس والواقعي الذي يقبله مجتمع عرفيا ، لوحدة مضمونية معينة . وهذه النظرية الأخيرة هي التي يتبناها إيكو ؛ لأنها هي القادرة في نظره على تفسير كفاءة مجتمعية في كل تناقضاتها الحية . راجع في تفصيل ذلك المقدمة التي وضعها محمد معتصم في صدر ترجمته كتاب مايكل ريفاتير: دلائليات الشعر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الرباط (١٩٩٧) ص LXV .

(٣) Slobin, Dan Isaac: Psycholinguistics, 2. edition USA (1979) p. 12.

لنظرية تشومسكى اللغوية ؛ إذ عني فيه بابتكار نماذج للسلوك اللغوي مبنية على نظريته في الكفاية والأداء . ويرى مارك ريشل Marc Richelle أن تشومسكى قد أضفى أهمية أساسية على موضوع اكتساب اللغة في إطار النظرية العامة للغة ، وأنه قد جدد الكيفية التي يطرح بها مشكل اكتساب اللغة [(١)] . وعلى رغم ما أثاره نموذج الكفاية الذي اقترحه تشومسكى نموذجا للأداء من مشكلات ، فإن مزيته التي لا يجادل فيها ، هي أنه نبه علماء النفس إلى ما يتصف به الإنتاج اللغوي من تعقد بالغ .

والحق أن النظرية اللغوية النفسية ذاتها قد أبدت شيئا ظاهرا من الفطنة إلى تفاعل أنماط مختلفة من المعرفة في المواقف الاتصالية الفعلية متجاوزة بذلك حدود المعرفة عند تشومسكى . يقول سلوبين Slobin مثلا: «في الاتصال الفعلي تتفاعل أنماط عدة من المعرفة: المعرفة بالصوتيات ، والنحو ، وعلم الدلالة ، والتداولية ، والأعراف الاجتماعية ، والعالم الفيزيقي ، والشخصية .. إلخ» [(٢)] .

وفي ربع القرن الأخير نشطت حركة تحليل الأبنية اللغوية للنصوص والأساليب الأدبية في إطار المنهج التحويلي التوليدي متخذة من نموذج الكفاية اللغوية قاعدة لمعرفة ما يملكه المتكلم الأصلي من بنية لغته . وقد عنى هنا بظواهر عدة ، من أهمها:

(أ) تعيين درجات الصحة النحوية المختلفة .

(ب)الاهتمام بتأمل ظاهرة التعقيد التركيبي .

---

(١) ريشل ، مارك: اكتساب اللغة ، ترجمة دكتور كمال بكداش ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ط١ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) ص١١ ، ١٢ .

(٢) Slobin, op. Cit., p. 12 .

(ج) الاهتمام بمسألة العلاقة بين المقبولية والصحة .

(د) الاهتمام بمسألة العلاقة بين البنى غير النحوية وأنواع محددة من التعابير المجازية .

وفي المسألة الأخيرة مثلا يلاحظ ثورن Thorn ما يلي:

(أ) أن الجمل غير النحوية ungrammatical ترد في الشعر أكثر مما ترد في النثر كثيرا .

(ب)أن هذه الجمل المنحرفة تشكل عنصرا أساسيا في استجابتنا للشعر .

(ج) على رغم معرفتنا بانحراف هذه الجمل المنحرفة ، فقد يحدث ألا نشعر بأنها منحرفة عن سياق القصيدة .

(د) أن الصيغ غير المعيارية معيارية في سياق القصيدة [1] .

كذلك كان لمفهوم الكفاية اللغوية الذي أدخله تشومسكى أثره الواضح في حرص نظرية الحدث اللغوي على توكيد أفكار بعينها . يرى فاندرفيكن Vanderweken مثلا أن المناطقة وفلاسفة اللغة من ذوى الاتجاه المنطقي – مثل كارناب ومونتاج وكابلان – قد مالوا إلى اختزال كفاية المتكلم اللغوية في قدرته على فهم شروط صدق القضايا التي تعبر عنها منطوقات الجمل في السياقات المتنوعة الممكنة التي يستعمل فيها لغته ، وأنهم تجاهلوا المظاهر الإنجازية الأخرى لمعنى الجملة . نتج عن هذا عجزهم عن إعطاء اهتمام كاف للاختلافات في المعنى

(١) راجع في تفصيل ذلك: ثورن ، ج. ب: القواعد التوليدية والتحليل الأسلوبي ، في: اللغة والخطاب الأدبي ، مجموعة مقالات جمعها وترجمها دكتور سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي – بيروت ط٣ (١٩٩٣م) ص ٧٥-٩١ .

التي تقع بين جمل من أنماط تركيبية مختلفة ، نحو:

* جون سوف يفعل هذا .

* من فضلك ، يا جون ، افعل هذا !

* لو يفعل جون هذا !

هذه الأنماط التركيبية التي تعبر عن القضايا ذاتها بالنظر إلى سياقات المنطوق الممكنة ذاتها ، ولكنها تستخدم لأداء أحداث إنجازية ذات قوى مختلفة . في منهج فاندرفيكن لا تنفصل الكفاية اللغوية عن الأداء ، كما هي الحال في مدرسة تشومسكى . على العكس من ذلك ، تؤول كفاية المتكلم اللغوية بأنها قدرته على أداء أحداث لغوية وفهمها في السياقات الممكنة المتنوعة التي يستعمل فيها لغته[(١)] .

هكذا كانت الكفاية التشومسكية المادة الأولية لألوان شتى من الكفايات ، ناسبت تفاوت الاتجاهات والاهتمامات ، وارتبط بعضها بالمتكلم ، وبعضها بالمستمع (أو القارئ) ، وبعضها الآخر بعملية التفاعل اللغوي ذاتها بين هذين الطرفين .

٢ ـ الكفاية اللغوية

(أ) مفهوم الكفاية اللغوية

يميز تشومسكى بين ما يعرفه متكلم لغة ما معرفة ضمنية ، وهو ما يسميه بكفايته his Competence وما يفعله بهذه المعرفة ، وهو ما يسميه أداءه his

(١) Vanderweken, Danial: Meaning and Speech Acts, Vol. 1 : Principles of Language Use, Cambridge Uni. Press New York (1990) pp. 10-11 .

Performance [١]. المعرفة التي تكمن في مقدرة الشخص على استعمال لغته ، هي إذن معرفة ضمنية فقط . أما النحاة ، فيحتاجون – كما يقول هدلستون Huddelston – إلى معرفة واعية بمعرفة المتكلم/ المستمع الضمنية [٢]. كان تشومسكى يشخص النحو التوليدي للغة بأنه وصف صريح للكفاية الذاتية لدى المتكلم أو المستمع المثالي . وبديهي أن قدرة المتكلم على استعمال لغته تتضمن قدرته على إنتاج منطوقات جديدة وفهمها ؛ أي منطوقات لم يتكلم بها من قبل ولم يسمعها [٣]. ويشرح ليفاندوفسكى الكفاية قائلا: «الكفاية نظام من القواعد والمبادئ التي تمثل تمثيلا عقليا ، والتي تمكن المتكلم من فهم جمل حية ، وتمكن الجمل من التعبير عن أفكاره ؛ إذ ترتبط الأصوات بالدلالات . وينتمي إلى كفاية المتكلم النحوية قدراته التركيبية والدلالية والفونولوجية ، التي تقضي بتطابق التعبيرات مع ما تعبر عنه في لغة بعينها ، كما تضم الأحكام عن حسن السبك الشكلي والدلالي ، ومرجعية التعبيرات ، والتماثل الدلالي ، والتعدد الدلالي ، ودرجة الانحراف » [٤].

يكتمل وضوح مفهوم الكفاية اللغوية بالوقوف على النقاط المهمة التالية في نظرية تشومسكى النحوية:

١ – أن اللغة مجموعة (متناهية أو غير متناهية) من الجمل ، كل جملة منها متناهية

---

(١) Chomsky, Noam: Topics in the theory of Generative Grammar, in: Current Trends in linguistics (ed. Thomas A. Sebeok) 3- The Hague – Paris (1966) p.3.

(٢) Huddleston, Rodney: An Introduction to English Transformational Syntax. Longman. London (1979) p.1.

(٣) المرجع السابق ص١ .

(٤) Lewandowski, op. Cit., S.570.

الطول ومكونة من مجموعة متناهية من العناصر . واللغات الطبيعية جميعا في صورها المنطوقة أو المكتوبة هي لغات بهذا المعنى ؛ وذلك أن كل لغة طبيعية تمتلك عددًا متناهيا من الوحدات الصوتية (أو الحروف) على رغم وجود جمل عدة غير متناهية .

٢- الهدف الرئيس في التحليل اللغوي للغة هو التمييز بين السلاسل النحوية التي تمثل جمل اللغة والسلاسل غير النحوية التي ليست بجمل اللغة ، ثم دراسة أبنية السلاسل النحوية .

٣- نحو اللغة إذن هو الجهاز الذي يولد جميع السلاسل النحوية للغة ولا يولد السلاسل غير النحوية . وتختبر صلاحية النحو المقترح للغة بالوقوف على حقيقة كون السلاسل التي يولدها سلاسل نحوية حقا أم لا ؛ أي إن كانت سلاسل مقبولة عند المتكلم الأصلي native speaker .

٤- تفترض في المتكلم الأصلي معرفة حدسية intuitive knowledge بالجمل النحوية للغته ، وينبغي للنحو القيام بمهمة إنتاج تلك الجمل على نحو فعال ومضئ . وتفترض هنا أيضا معرفة جزئية بما يعد جملا وبما لا يعد (أي الجمل Sentences واللاجمل Non- Sentences) .

٥- النحو مرآة سلوك المتكلم الذي يستطيع – على أساس تجربته المحددة باللغة – أن ينتج أو أن يفهم عددا غير محدد من الجمل الجديدة . وكل تفسير لفكرة النحوية في اللغة grammaticalness ؛ أي كل تشخيص للنحوية في اللغة في حدود المنطوقات اللغوية الملاحظة ، يعد تفسيرا لوجه رئيس من وجوه السلوك اللغوي .

٦- لا تحدد فكرة النحوية من خلال المعنى أو الدلالة . تتساوى الجملتان في

خلوهما من المعنى ، ولكن متكلم اللغة يعرف أن إحداهما فقط هي الصحيحة نحويا . ويمثل تشومسكى على ذلك بالجملتين التاليتين:

- Colorless green ideas sleep furiously.

- Furiously sleep ideas green Colorless.

فهما مشتركتان في خلوهما من المعنى ، ولكن الأولى منهما نحوية . يخلص تشومسكى من مناقشة مثل هذه الجمل إلى أن البحث عن تحديد دلالي للصحة النحوية سيكون عديم النفع [١] .

٧- نحو اللغة هو بالضرورة نظرية اللغة . وتعتمد كل نظرية علمية على عدد متناه من الملحوظات، وتبحث عن ارتباطها بالظواهر الملاحظة ، وتتنبأ بظواهر جديدة عن طريق إنشاء قوانين عامة في حدود أبنية افتراضية . ويعتمد نحو اللغة على مدونة أصلية Corpus من المنطوقات (الملحوظات) . وهو يحتوي على قوانين نحوية محددة بحدود الوحدات الصوتية الخاصة والعبارات وغيرها بهذه اللغة (أبنية افتراضية hypothetical constructs) . تعبر هذه القوانين عن العلاقات البنائية بين الجمل المكونة للمدونة والعدد غير المتناهي من الجمل التي يولدها النحو من هذه المدونة (التوقعات) . النظرية الصحيحة للغة هي تطوير المعايير التي تحكم انتقاء نحوها الصحيح [٢] .

اللغة عند تشومسكى إذن طائفة من الجمل ، ولكنها الجمل الصحيحة نحويا فحسب . والنظرية اللغوية نظرية للجمل الصحيحة نحويا . ويعتمد متكلم اللغة

---

(١) Chomsky, Noam: Syntactic Structures, Mouton – The Hague – Paris, 8. th. Printing (1969) pp. 13-15.

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .

الأصلي في تمييزه بين الجمل الصحيحة نحويا والجمل غير الصحيحة على معرفته الحدسية . هذه المعرفة تمكنه أيضا من إنتاج عدد غير متناه من الجمل الجديدة وفهمها . هي مصدر المعلومات في تحديد فكرة النحوية ، وليس المعنى أو الدلالة .يضيف هدلستون ، أحد ممثلي المنهج التحويلي ، فكرة مهمة ، هي أن تحديد اللغة لا يكون من خلال المنطوقات المحتملة . ويمثل على ذلك فيما يلي :

(1) lwas hoping that you – would you tell hom the news for me?

(2) I was hoping that you would tell hom the news for me .

فالبنية النحوية للمنطوق الأول غير مكتملة مقارنة بالمنطوق الثاني . وعدم الاكتمال ظاهرة شائعة تماما في الكلام التلقائي . ومن هنا ، يجعل المنطوق الأول « منطوقا محتملاpotential utterance ، يمكن أن يقع . ومتكلم الإنجليزية يعي أن (١) مختلف في حالته عن (٢) . وينبغي للوصف الذي يناسب معرفة المتكلم / المستمع بالإنجليزية ، ينبغي له أن يعبر عن هذا الاختلاف في الحالة . ولما كانت المنطوقات من كلا النمطين يمكن أن تقع ، فلا يمكن أن تشخص الاختلافات في الحالة في حدود فكرة «احتمالية الوقوع Potentiality of Occurrence » ، وأن (٢) و ليس (١) ينتمي إلي مجموعة الجمل حسنة السبك Wellformed Sentences في الإنجليزية[١] .

يعنينا مما سبق الانتهاء إلى أن «الجملة Sentence » مفهوم ينتمي إلى نظرية الأداء . يمثل المنطوق في (٢) علاقة مباشرة وبسيطة (نسبيا) بين المنطوق والجملة ، بيد أنه لا توجد جملة أو سلسلة من الجمل تناظر المنطوق في (١) .

---

(١)Huddleston, Op . Cit, P. 2.

(٢)المرجع السابق ص٢ .

ليست كل المنطوقات منطوقات جمل . وهذه علة مهمة للاحتفاظ بالتمايز النظري بين المفاهيم . حينما ينطق متكلم بالمنطوق في (١) ، فلا يؤخذ هذا على أنه دليل على أن معرفته بالإنجليزية معرفة غير تامة . الأحرى أن نسلم كما يقول هدلستون ـ بأن استعمال المتكلم لغته قد لا يعكس على نحو مباشر معرفته بهذه اللغة(٢) .

وغنى عن البيان أن نحو اللغة ذاته يفسح مجالا لتراكيب جديدة غير متناهية . ولعل قدرة المتكلم على توليد الجمل الجديدة وفهمها ، وحدسه عن بنية العبارات والجمل ، وحدسه عن التفاوت بين درجات حسن السبك للجملة الواحدة ، مما يتيح لنا القول بأن مفهوم الكفاية عند تشومسكي لايحاذي محاذاة تامة مفهوم اللغة عند دوسوسير ، وذلك أن اللغة عند دوسوسير ليست ـ كما ألمحنا سابقا ـ إلا مخزنا ونظاما نحويا يوجد بالقوة في كل عقل .

(ب) الكفاية والأداء

الكفاية معرفة ضمنية باللغة . والأداء استعمال اللغة في مواقف ملموسة . الكفاية معرفة مكتسبة ، والأداء فعل كلامي متحقق . يعني هذا أن الأداء هو طريق الوصول إلى الكفاية ؛ فالكفاية لا تدرك إلا من أفعال الأداء اللغوي . من ثم عدت الكفاية بناء افتراضيا مثاليا ، في الوقت الذي يكون فيه الأداء ناتجا لغويا واقعيا . أثار هذا التمييز مشكلا عويصا بين علماء اللغة وعلماء علم اللغة النفسي ، هو مشكل تحديد ماهية الوقائع التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان عند تحديد الكفاية والواقعات التي يجب استبعادها ، من حيث إنها واقعات غير مناسبة . يقول مارك ريشل : «لقد حل علماء اللغة بوجه عام هذه المشكلة بالرجوع إلى حدس الأشخاص الناطقين ، وبالاعتماد على أنفسهم عند الاقتضاء بوصفهم عينات ممثلة للجماعة اللغوية »[(١)] .

(١) اكتساب اللغة ص٣٢ .

تثير الكفاية في علاقتها بالأداء إشكاليات عدة ، نوجزها ـ من خلال ما لاحظه العلماء بعد تشومسكي ـ فيما يلي :

١- يؤدي الفصل بين الكفاية والأداء إلى النظر إلى الكفاية على أنها اللغة الطبيعية في صيغتها المثالية ، والنظر إلى الأداء على أنه الحقيبة البالية التي تحوى الآثار الجانبية الفسيولوجية وغيرها من الأشياء التي لا يتصل بعضها ببعض [(١)] .

٢- ليس كل ما يبيحه معيار الصحة النحوية مقبولا عند الأداء . تكون العبارة صحيحة نحويا ، ولكن أحدا لاينطق بها و لا يفهمها في الاستعمال العادي . إن جملة نحو : «أكل الفأر الذي قتله الهر الذي طارده الكلب الجبن » تعد جزءا من اللغة عند كل من ينحو منحى تشومسكي ، لأن قواعد اللغة تجيزها . و لكن متن اللغة لا يعرف مثل هذه الجملة . يرجع مارك ريشل ذلك إلى أن بعض القيود التي ترتبط بالأداء تحظر استعمال مثل هذه العبارات ، مثل قيود الذاكرة ، والتعقد المنطقي الذي يستحيل حله . . إلخ [(٢)] .

٣- استبعد تشومسكي عند إنشاء نظريته النحوية عوامل مثل محدودية الذاكرة ، والعدول عن خطة الكلام أثناء التكلم ، كما تجاهل الأخطاء [(٣)] . يثير هذا تساؤلا عن مدى جعل الأداء الفعلي (على رغم ما يعرض من عوارض ، وعلى رغم تفاوته عند المتكلم الواحد من مناسبة إلى أخرى) عيارا للحكم

---

(١) Halliday, M. A. K: Language as Social Semiotic: The Social Interpretation Of Language and Meaning, Open Uni .London (1993) p . 38 .

(٢) اكتساب اللغة ص٣٨ .

(٣)النص والخطاب والإجراء ص١٠٨ .

على الكفاية التي عدت دائما طريقة مثالية للعمل وفقا للقوانين . أينظر إلى تلك العوامل والعوارض مستقلة عن الكفاية اللغوية ، أم يعتد بما تحمله من مضامين عن «معرفة المتكلم أو المستمع بلغته»؟ . يقول ريشل : «المعلوم أن الطفل يتلفظ ببعض العبارات غير الأصولية (أي غير المطابقة لقوانين النحو) . وحين يتلفظ الراشد بمثل هذه العبارات ، فإن عالم اللغة يستبعدها بسهولة بوصفها أحداثا طارئة من الأداء ولا تندرج بالتالي في قواعد النحو»[(١)] .

إن معيار الصحة النحوية ليس معيارا مطلقا . وكثيرا ما يجرى تحديد بنية المنطوق الأساسية من خلال وحدات الخطاب الكبرى ، سواء أكانت مقالية أم مقامية . ولم يكن غريبا مع مثل تلك الإشكاليات أن تصدف نظرية تحليل الخطاب عن مفهوم الكفاية وأن تراه مفهوما غير مساعد في حقلها[(٢)] .

(جـ) نقد الكفاية اللغوية

تعاور علماء علم اللغة الاجتماعي وعلماء النص ومحللو الخطاب مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكى ومن نحا منحاه بالنقد من جهات مختلفة . يمكن أن نوجز أهم ما أُخِذَ على الكفاية فيما يلي:

١- تقابل ثنائية الكفاية / الأداء بين ما يعرفه المتكلم وما يؤديه ، في الوقت الذي لا حاجة فيه إلى استظهار ما يعرفه المتكلم ؛ وذلك أن خلفية ما يؤديه دليل على ما يمكنه أن يؤدى ؛ أي دليل على الممكن الذي هو موضوعي Objective ، لا الكفاية التي هي ذاتية Subjective[(٣)] .

---

(١) اكتساب اللغة ص٣٨ .

(٢) Coulthard, Malcolm-Montgomery, Martin : Studies in Discourse Analysis, Routge-London and New York (1989) PP . 28-83.

(٣)Halliday, op. Cit., pp. 34-38.

٢- يعني هذا أنه لا مكان لهذه الثنائية من منظور ما ينبغي أن يكون من علاقة بين النظام اللغوي وسائر الأنظمة الأخرى غير اللغوية: اجتماعية ونفسية وثقافية وحضارية .

وكان والتر كينتش Walter Kintsch يرى أن الفصل بين الكفاية والأداء «مجرد عذر للساني وعالم النفس كليهما ، يبرر إهمال كل منهما لنتائج الآخر» (١) . ويطرح فيرنر كومر هذا الفصل لكونه «مرتبطا ارتباطا لا ينفك بنموذج لغوي عاجز عن أن يدخل في أية نظرية تتناول جانب الفعل action» (٢) .

٣- لم يراع وصف الكفاية اللغوية التفاعل بين الكفاية النحوية والكفاية التداولية، وظل أحدهما منفصلا عن الآخر . ولم يراع تشومسكى أيضا الوظيفة اللغوية الاتصالية ، بل حصر نفسه في نطاق الجمل ، وطوى كشحه عن السياق (٣) .

٤- لم يكن الحدس عند تشومسكى مصدرا تكميليا للمعلومات اللغوية فحسب ، بل كانت له سلطة فعلية لا تتمتع بها الملاحظة . عندما يصطدم اثنان ، يصبح الحدس – في رأي تشومسكى – المرجع الذي يحدد طبيعة القواعد التي يضعها اللساني (٤) . يعترض سامبسون على ذلك . والاعتراض على دليل الحدس في العلوم لا يعزى عنده – ونوافقه على ذلك – إلى عدم وجود شيء يسمى الحدس ؛ بل يعزى إلى أن الحدس ، مع أنه عرضه للخطأ شأنه شأن

(١) النص والخطاب والإجراء ص ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٣)Lewandowski. Op. Cit., p. 572.

(٤) مدارس اللسانيات ص١٦٠ .

الملاحظة، لا يمكن أن ينقد بشكل بناء على النحو الذي تنتقد فيه تقارير الملاحظات [١].

وقد نبهت جودث جرين إلى أن اعتماد تشومسكى على الحدس اللغوي ، قد وضع بعض العقبات:

(أولاً) عندما يطلب من الناس أن يحكموا على السلامة النحوية لجمل ما ، تجدهم يميلون إلى الوقوع تحت تأثير اعتبارات أخرى لا تتعلق بما طلب منهم، مثل: أ للجملة معنى أم لا ؟ .

(ثانيًا) ليس هناك شك في أن جميع الجمل التي يتحدث بها الناس فعلا لا تتفق في كثير من الأحيان مع القواعد السلمية للغتهم ؛ لأنها أنصاف جمل غير مكتملة ، أو لأن بعضها يتشابك مع بعض في عقد نحوية [٢].

٥- ويرى بينتنج Buenting أن النحو التوليدي قد تجاهل الوصف النصي ، وصار وصفا للقدرة العقلية ، ووصف النظام القاعدي الكامن في مخ مستخدم اللغة والذي يصنع أبنية لغوية ، مما جعل علم اللغة ذا طبيعة عقلية [٣]. وكان دو بوجراند de Beaugrande يرى أن مفهوم الكفاية ينبغي له أن يحظى بنظرة أكثر اتساما بالتكاملية مما يجرى في العادة في قواعد الجملة ، وأنه علينا أن نبحث في تحديد القدرات التي تجعل الناس من أصحاب الكفاية في

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٢) جرين ، جودث : التفكير واللغة ، ترجمة دكتور عبد الرحمن عبد العزيز العبدان ، دار عالم الكتب – الرياض (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) ص١٢٨ .

(٣) Buenting. Karl-Dieter: Einfuhrung in die Linguistik. 8. Auflage-Athenaum Verlag (1979) S. 468.

إنتاج النصوص وفهمها بنجاح دائم [(١)]. ولكنه – في الوقت نفسه – كان يرى – مختلفا في ذلك عن غيره مثل هاليداى- أن التفريق بين الكفاية والأداء ذو قيمة ما دام الاستغناء عنه مستحيلا [(٢)]. كما كان يرى «أنه يجب التفريق بين الكفاية والأداء على نحو ما نفرق بين المرتكزات Strategies (أي الإجراءات التطبيقية التي تصلح للاستعمال دائما) والتطبيقات Applications (أي الأحداث المفصلة التي تحدث في المواقف الاتصالية ومنها التشويش أو الفشل) [(٣)].

لا ينبغي أن تجعل هذه الانتقادات مطر السوء على نظرية تشومسكى في الكفاية اللغوية ؛ بل هي وضع الأيدي على مواطن النقص فيها من منظورات مناهج لغوية أخرى ، لاسيما المنهج اللغوي الاجتماعي . ولعل أهم ما أخذ على نظرية تشومسكى في الكفاية إهمالها التفاعل بين الكفاية النحوية والكفاية التداولية ، وجعلها السلطة الأقوى في التمييز بين الجمل الصحيحة نحويا وغير الصحيحة للحدس .ومن غير المقبول منهجيا أن يؤخذ مفهوم في نظرية بمبادئ نظرية أو نظريات أخرى . فهم الكفاية في إطار النظرية التحويلية التوليدية لا يجعل الاعتبارات السياقية التداولية أمرا واردًا ؛ وذلك أن تحليل الأبنية النحوية للجمل في ذاتها (وليس من خلال المعنى أو الدلالة) المبدأ الذي يُسيِّر الفكر **التحويلي التوليدي عند تشومسكى ومدرسته . وكان تشومسكى نفسه يدرك أن «معرفة الإنسان اللغوية ؛ أي نظام القواعد المستدمج داخل ذهن الإنسان ، هي فقط عامل واحد من عوامل كثيرة تقرر كيف تستخدم أو تفهم عبارة ما في موقف معين»** [(٤)].

---

(١) النص والخطاب والإجراء ص ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص١٠٨ .

(٣) المرجع نفسه ص١٠٩ .

(٤) نقلا عن : التفكير واللغة ص١٧٢ .

كان تشومسكى قد درس الرياضيات والفلسفة في جامعة بنسلفانيا . وقد صبغت هذه الدراسة فكره اللغوي ، وساعدته على تطوير فرضية «الكليات النحوية « Syntactic Universals » التي ناظرت « الكليات الصوتية الوظيفية» عند رومان ياكوبسون Roman Jakobson أحد مؤسسي اللسانيات الوظيفية في مدرسة براغ . كان جوهر فرضية تشومسكى أن التراكيب اللغوية متشابهة بين شتى اللغات ، وأن كل لغة تعرف عددا غير متناه من الجمل ، على رغم تناهي العلامات اللغوية فيها . من أجل ذلك ، استقرت عناية تشومسكى على نشاط العقل البشري في إنشاء أعداد غير متناهية من الجمل في أنماط مختلفة ، صارفا النظر عن ارتباط هذا النشاط وتلك الأنماط بسياقاتها الاتصالية الفعلية . وهذا مكمن النقص في نظرية تشومسكى في الكفاية اللغوية . هي نظرية جزئية أو ناقصة؛ وذلك أنها انصرفت إلى البنى التركيبية والجوانب الشكلية من اللغة ، حتى شغلت عن المحيطات التبليغية الاجتماعية التي تقع فيها تلك البنى وعن الجوانب الإنسانية التي تشكل صيغ التفاعلات اللغوية اليومية . ويلحظ المرء أن بعض الجمل التي وصفت في التحليل النحوي عند تشومسكى بأنها خاطئة نحويا ، إنما هي بالأحرى جمل لم يملك قائلوها أن يهيئوا لها مقاماتها المناسبة والتي تجعل لها معنى . ومن أدلة الحكم على نظريته في الكفاية بالنقصان ، أنها لم تجعل محلا في حسبانها للجمل المحتملة المقبولة في الأداء ؛ فالمتكلمون لا يقصرون أداءهم اللغوي على جمل مكتملة تحدها حدود النحو وقوانينه النموذجية ، بل قد يصدرون أيضا منطوقات جمل ناقصة من حيث البني النحوية ، كاملة في وظائفها الاتصالية التداولية .

في نظرية تشومسكى في الكفاية ، يبدو لنا الفصل واضحا بين النحو وميادين العلوم الإنسانية ، فضلا عن وضوح الفصل بين النحو وعلم الدلالة من ميادين

العلوم اللغوية ذاتها . ونحن مع ستوبس **Stubbs** في أن الفصل بين الميادين وفروع الميادين يفيد في غالب الأحوال ؛ وذلك أنه يتيح درس طائفة مهمة من الظواهر التي يضرب عنها الصفح [١] . ولكن النظرة المترابطة إلى اللغة ، ينبغي لها أن تأخذ في الحسبان استعمال اللغة استعمالا يوميا في خطاب متصل .

(د) إعادة صياغة الكفاية

يمكن القول بأن بعضا من المآخذ السابقة تعد توجيهات إلى إعادة صياغة كفاية تشومسكى اللغوية . ولعل أهم محاولات إعادة الصياغة الموسعة محاولة هربرت بركله **Herbert Brekle** وهانز بولر **Hans Buehler** .

سعت محاولة بركله إلى بيان العلاقة بين الكفاية والأداء وبين ثلاثية دو سوسير: الكلام **Parole** / اللغة **Langage** / كلية اللغة **faculte de langue** في إطار الأبعاد السيميائية الثلاثة: النحو ، والدلالة ، والتداولية . إنها محاولة لإعادة الصيغة في ضوء ما يقدمه علم الدلالة من مكونات دلالية للكفاية اللغوية العامة ، وما تقدمه التداولية لها من مبادئ ؛ مثل اشتراك المتكلم والمستمع في الأدوار الاجتماعية وفي سياقات التعامل **Handlungskontexte** [٢] .

أما هانز بولر وزملاؤه ، فينطلقون من تحديد موضوعات علم اللغة الكبرى في:

١- اللغة في نظامها .

٢- اللغة في وظيفتها الاجتماعية .

---

(١) Stubbs. Michael: Discourse Analysis. Basil Blackwell-Oxford (1989) p. 11.

(٢) Brekle, op. Cit., SS. 124-130.

ومن هنا كانت العناية بأمرين اثنين:

١- فحص المفهومين: الكفاية / الأداء فحصا نقديا ، وتعريفهما تعريفا جديدًا في المسائل اللغوية الاجتماعية .

٢- تعيين الوضع النموذجي لكل من المتكلم والمستمع ؛ لعمل نموذج للبنائية اللغوية ، والنحو التحويلي التوليدي ، وعلم الدلالة والتداولية [١] .

المتكلم أو المستمع النموذجي في منهج النحو التحويلي التوليدي ، لا يملك أي علامات فيزيائية ، ولا أي علامات اجتماعية ؛ كالتربية ، والتعليم ، والوظيفة، والعلاقات الاجتماعية ، والجماعة التي ينتمي إليها .

دعا هذا بولر وزملاءه إلى العودة إلى «نمذجة» المتكلم والمستمع ، ومحاولة تقديم تعريف جديد للعلاقة بين الكفاية والأداء . ينبغي للمتكلم أو المستمع «المنمذج» أن يتمتع بالقدرة على حيازة النصوص محكمة الجمل، والقدرة على تأليف التعبيرات وإنتاجها ووضعها في مواقفها الاجتماعية .

يعني هذا أن المناهج وطرق الإجراء في بحث اللغة في نظامها ، لا تستطيع أن تصف قدرات المتكلم أو المستمع ، أو أن توضحها على نحو تام ، هذه القدرات التي تعد في علم اللغة الاجتماعي ذات أهمية معرفية . يبين بولر وزملاؤه ذلك بالتمثيل بمحاولتين لاعتذار متكلم بعينه في مواقف اتصالية اجتماعية متفاوتة:

(١) السيد س يعتذر إلى زوجته عن سوء مزاجه:

« قطتي ... لا تنزعجي ... معذرة ... من فضلك ... يؤسفني هذا ... لم أكن

---

(١) Buehler, Hans, et. al., : Sprache 2, Eine Einfuehrung in die moderne Linguistik, Fischer Taschenbuch Verlag-Frankfurt (1973) S. 180 >

أقصد هذا ...» .

(٢) السيد س يعتذر في مناقشة علنية إلى شريك في المحادثة غريب نسبيا:

«أرجوكم يا سيد س أن تهدءوا بالا ، أؤكد لكم أنني آسف أسفا بالغا على تصرفي ...» .

يريد هانز بولر بهذا أن يبين أن النوعيات المتفاوتة للتعامل اللغوي ، لا تكاد تتضح عن طريق الوصف اللغوي الشكلي ؛ فالفرق في تشفير السيد س اعتذاره بين (١) و (٢) ، يأتي من الموقفية الاجتماعية المتفاوتة للنص ، ومن درجة الألفة بين المشاركين ، ومن علانية الموقف ، ومن التوافق الخطابي المتفاوت Redekonstellation[(١)] .

الافتراضي	المتحقق
التوليد الممكن للأبنية اللغوية (الكفاية)	الاستعمال اللغوي (الأداء)
الجماعية	الفردي / الجماعي
الملكة اللغوية (الشفرة)	
الفردية / الجماعية	

تناقش الثنائية المفهومية: الكفاية /الأداء ، في هذا الجدول بالتعبير عنها بالمفهومين: الافتراضي / المتحقق . وتفهم الكفاية هنا بأنها قدرة المتكلم أو

(١) المرجع السابق ص ١٨١-١٨٢ .

المستمع على التفشير وعلى فك التشفير ، وبأنها تحقيق الشفرة **Kode** أو الملكة اللغوية **Sprachbesitz** . هي إذن القدرة على الاختيار أو الانتقاء من مخزون العلامات اللغوية وما يربط بينها من قواعد لإنتاج أبنية لغوية . هذه القدرة هي ما نعنيه تماما عن الكفاية النحوية الخالصة [(١)] . أما استدعاء المتكلم أو المستمع كفايته النحوية ، فهو ما يعرف بالأداء ، الأداء الذي يرتبط بسياقات عرفية وموقفية ، كما يرتبط بمكونات اجتماعية ونفسية ؛ أي بما أسماه بولر باسم التوافق الخطابي **Redekonstellation** .

لماذا لم تقبل البحوث اللغوية الاجتماعية التفريع إلى الكفاية والأداء ؟ يرجع ذلك إلى أن ارتباط مناسبة العملية الاتصالية وفهمها وتفسيرها بالسبك النحوي ارتباط جزئي فحسب ؛ وذلك أن هناك أشياء أخرى ينبغي أن ترتبط بها ؛ هي المكونات الموقفية والاجتماعية والنفسية .

في محاولتي اعتذار السيد س السابقتين ، لم يكن الحكم بمناسبة سلوكه اللغوي أو عدم مناسبته مرتبطا بجودة السبك أو برداءته . كانت جمل الاعتذار صحيحة بحكم فهمنا العلاقات الاجتماعية بين السيد س ومخاطبيه ، ومن سمات الموقف[(٢)] .

في هذه الحال ،يدخل بولر وزملاؤه المفهوم: كفاية السلوك الاتصالي اللغوي **Verbale Kommunikative Verhaltenskompetenz** . ويغير الجدول السابق حينئذ إلى الشكل التالي:

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٤ .

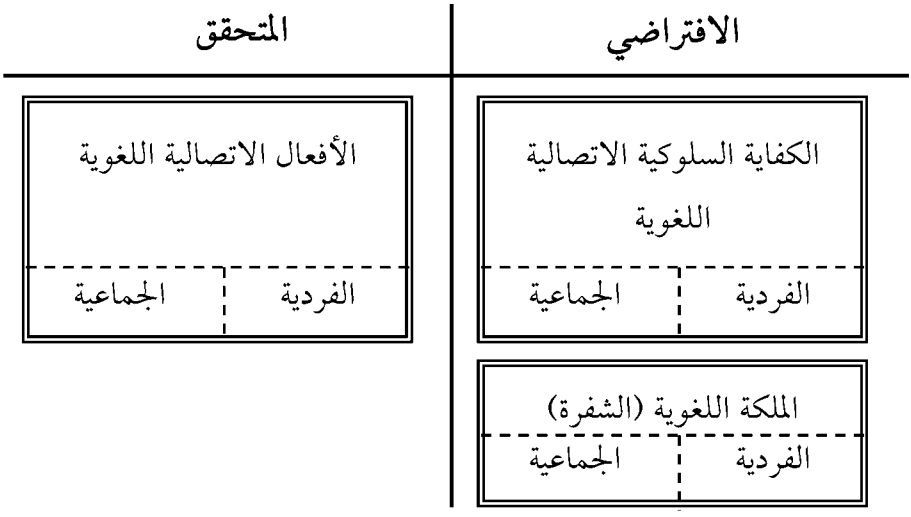

نفهم الكفاية السلوكية الاتصالية اللغوية من مقدرة المتكلم أو المستمع التي تمارس عملها في التوافق الخطابي على نحوي لغوي ؛ أي فهمها لغويا [1] .

(هـ) الكفاية اللغوية والملكة اللسانية

كان ابن خلدون – وإن لم يكن من اللغويين المحترفين – قد سبق إلى مفهوم «الملكة اللسانية» الذي نراه صالحا لأن يكون المقابل العربي لمفهوم الكفاية عند تشومسكى . التفت ابن خلدون إلى جل الأفكار المهمة في نظرية تشومسكى في الكفاية ، بل زاد بعضا من الأفكار التي اتصلت بالواقع اللغوي في المجتمع العربي. ويمكن أن نميط اللثام عن ذلك من خلال النقاط الجوهرية التالية:

١- الملكة اللسانية عند ابن خلدون تعني أيضا المعرفة التي يكتسبها متكلم اللغة السليقي عن لغته كلاما وفهما ؛ فالحروف والحركات والهيئات – أي الأوضاع – لم يتكلفها العرب ؛ «إنما هي ملكة في ألسنتهم ، يأخذها الآخر

(١) المرجع السابق ص ١٨٥ .

عن الأول»[(١)]. وتكتسب اللغة عنده بالطرق التالية:

(أ) السمع: وهو أبو الملكات اللسانية [(٢)].

(ب) والتعليم: ووجهه حفظ كلام العرب الجاري على أساليبهم [(٣)].

(جـ) وكثرة الحفظ: وذلك أن حصول ملكة اللسان العربي ، إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم ، فينسج هو عليه ، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ منهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم [(٤)]. وكثرة الحفظ تزيد صاحب الملكة رسوخا وقوة [(٥)]. ولا تحصل الملكة من حفظ كلام العرب إلا بعد فهمه [(٦)].

(د) والممارسة: فالملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه [(٧)].

وللتكرار أثره في ترسيخ الملكة: « والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ؛ لأن الفعل يقع أولا ، وتعود فيه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالا .

---

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة ، مراجعة لجنة من العلماء ، المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة د . ت ١/ ٥٤٦ .

(٢) المرجع السابق ١/ ٥٤٦ .

(٣)المرجع نفسه ١/ ٥٥٩ وقارن ١/ ٥٥٨.

(٤) المرجع نفسه ١/ ٥٦١ .

(٥) المرجع نفسه ١/ ٥٥٩ .

(٦) المرجع نفسه ١/ ٥٥٣ .

(٧) المرجع نفسه ١/ ٥٦٢ .

ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار ، فتكون ملكة ؛ أي صفة راسخة [(١)] . ويشرح ابن خلدون هذه المراحل بقوله: «فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم ، يسمع كلام آل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم ، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها ، فيلقنها أولا ، ثم يسمع التراكيب بعدها ، فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم ، واستعماله يتكرر ، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم» [(٢)] .

[وقوع الفعل اللساني] ← صفة للذات [تكرار الصفة] ← حال أو صفة غير راسخة [زيادة تكرار] ← ملكة أو صفة راسخة .

الملكة إذن مكتسبة . والصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة لم يكن أمرا طبيعيا . لم تكن العرب تنطق بالطبع ، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام ، تمكنت ورسخت ، فظهرت كأنها جبلة وطبع [(٣)] .

٢- كان هدف الدراسة اللغوية عند تشومسكى هو دراسة كفاية المتكلم أو المستمع السليقى ، وكذلك يرى ابن خلدون أن اللغات كلها ملكات ، وأن اللغات وملكاتها ليست مجانا [(٤)] .

٣- كان تشومسكى يرى اللغة طائفة من الجمل الصحيحة نحويا ، كما كان يرى

(١) المرجع نفسه ١/ ٥٥٤ .
(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٥٤-٥٥٥ .
(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٦٢ .
(٤) المرجع نفسه ١/ ٥٥٧ .

أن نحو اللغة هو نظرية اللغة . وهذه الأهمية للنحو تعظم أيضا في جعل ابن خلدون الأهم المقدم من علوم اللسان العربي (اللغة والنحو والبيان والأدب) هو النحو ؛ «إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة ، فيعرف الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر .. علم النحو أهم من اللغة ؛ إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة [(١)] . والحق أن اصطلاح «اللغة» عند ابن خلدون في مثل الكلام السابق ليس هو اصطلاح «اللغة» الذي نعرفه في العصر الحديث غير موقوف على المفردات ، إنما كان العرب يطلقونه على «المفردات» . وقد استقر عند علمائنا القدماء أن جهل بعض مفردات اللغة لا يقدح في العالم ، إذ لا يحيط باللغة إلا «نبيّ» كما قالوا ، أما جهل جانب واحد من جوانب النحو فنقيصة من النقائص الكبرى .

٤- لم يكن منطلق تشومسكى تأمل الرموز اللغوية المفردة ، ولا تجمع الرموز اللغوية ، ولكنه كان إنتاج الجمل والجهاز القاعدي الذي يرتبط به . لقد قصد تشومسكى بالكفاية اللغوية الجهاز القاعدي النحوي في دماغ متكلم سليقى وامتلاكه قواعد توليد التراكيب التي يحصلها من اكتسابه الأول للغة . وكذلك كانت نظرة ابن خلدون إلى الملكة ؛ فتمام الملكة أو نقصانها ليس بالنظر إلى المفردات ، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب [(٢)] .

ويميز ابن خلدون هنا بين التراكيب الراجعة إلى الملكة اللسانية والقوانين المطردة المستنبطة من كلام العرب . فالقوانين إنما تفيد علما باللسان ، ولا تفيد حصول الملكة [(٣)] . قوانين الملكة علم بكيفية لا نفس كيفية . فالبصير

(١) المرجع نفسه ١/ ٥٤٥ .
(٢) المقدمة ١/ ٥٥٤ .
(٣) المرجع السابق ١/ ٥٦٢ .

بالخياطة علما غير المحكم لملكتها عملاً . وكذلك العلم بقوانين الإعراب ، فهو علم بكيفية العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين ، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه ، أو ذى مودته ، أو شكوى ظلامة ، أو قصد من قصوده ، أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن [(١)] .

٥- الملكة متغيرة . ومن عوامل تغيرها العوامل الخارجية: اجتماعية وتاريخية وغيرها . يضرب ابن خلدون مثالا على ذلك بالذي حصل للعرب بما ألقى إليها السمعُ من مخالفات المستعربين ؛ «ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع» [(٢)] . حينما خالط العرب العجم ، حصلت لهم ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت لهم ومن الملكة الثانية للعجم ، «فعلى مقدار ما يسمعونه من العجم ، ويربون عليه ، يبعدون عن الملكة الأولى» [(٣)] .

٦- جعل تشومسكى الحدس مصدرا للمعلومات واستقاء القواعد والأداة الأهم في التمييز بين الجملة الصحيحة نحويا والجملة غير الصحيحة . وفي كلام ابن خلدون ما يثبت فطنته إلى دور الحدس في ذلك أيضًا ، مثل قوله:

(أ) «فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرّى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ... وإن سمع تركيبا غير جارٍ على ذلك المنحى مجّه ، ونبا عنه

(١) المرجع نفسه ١/ ٥٦٠ .
(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٤٦ .
(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٥٨ .

سمعه بأدنى فكر ، بل وبغير فكر ، إلا بما استفاد من حصول هذه الملكة [١].

(ب) أو قوله: «ولو رام صاحب هذه الملكة حيدًا عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه ؛ لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده . وإذا عرض عليه الكلام حائدًا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجّه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المُفادة بالاستقراء . وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم» [٢].

٧- إذا كان بعض اللغويين قد أخذوا على تشومسكى إهماله الاعتبارات السياقية في تفسير التراكيب وإهماله التفاعل الذي يجب مراعاته بين الكفاية النحوية والكفاية التداولية ، فإن فطنة ابن خلدون إلى حقيقة الواقعة اللغوية الاتصالية ، قد هدته إلى وجوب توفر عوامل أخرى مع قدرته على إنتاج التراكيب وفهمها ؛ مثل سلامة الطبع ومراعاة التطبيق. ومقتضيات الأحوال- أو أحوال المتخاطبين أو الفاعلين[٣].من تمام الإفادة عند ابن خلدون ، بل يراها مما يجعل الكلام من جنس كلام العرب ؛ «فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة» [٤].

(١) المرجع السابق ١/ ٥٦٢ .
(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٦٢ – ٥٦٣ .
(٣) المرجع السابق ١/ ٥٥٠ .
(٤) المرجع نفسه ١/ ٥٥٠ .

وينبغي عند ابن خلدون «التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام» [(١)].

ومن ذلك مثلا توكيد الإسناد:

المقال	حال الفعل اللساني	المقام (حال المتخاطبين)
زيد قائم	عار عن التوكيد	إفادة خالي الذهن
إنّ زيدا قائم	مؤكد بإن	إفادة المتردد
إنّ زيدا لقائم	مؤكد بإن واللام	إفادة المنكر

فهذه متغايرة كلها في الدلالة ، وإن استوت من طريق الإعراب [(٢)].

الملكة اللسانية إذن معرفة المتكلم المكتسبة بلغته . هي صفة راسخة للمتكلم تحصُل بتكرار الأفعال الكلامية وتحصَّل بالتعلم والممارسة . وليس تمام الملكة أو نقصانها بالنظر إلى المفردات ؛ فالملكة التامة في التركيب ومراعاة التأليف الذي يطبَق الكلام على مقتضى الحال . ولنا – والأمر على ما رأينا – أن نستنتج حقيقة مهمة ؛ هي أن الملكة اللسانية عند ابن خلدون أوسع من أن تقتصر على الملكة النحوية ؛ لأنها تتسع للإفادة والإبلاغ ، حتى تقارب الكفاية الاتصالية التى يراعى فيها مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وربما لا نجاوز الصواب إذا جعلنا مفهوم «الذوق» عند ابن خلدون مضاهيا لمفهوم الكفاية الاتصالية عند المحدثين من رواد المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي ، على نحو ما سنرى .

الذوق هو الملكة عندما ترسخ وتستقر[(٣)]. والذوق حصول ملكة البلاغة

(١) المرجع نفسه ١/ ٥٥١ .
(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٥١ .
(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٦٣ .

للسان [1]. ولا يبلغ المتكلم الغاية من إفادة مقصوده إلا بتلك المطابقة التي تقتضيها ملكة البلاغة للسان . والمطابقة إنما تكون بين أفعال اللسان وسياقات الاتصال .

٣ ـ الكفاية الاتصالية

الكفاية اللغوية – في موقعها من ساحة الخطاب – نموذج لمعرفة المتكلم بلغته، وليست نموذجا لمعرفة كيف يقيم اتصالا لغويا حقيقيا مع الآخرين ، يلائم فيه بين اللغة التي يعرفها وبين الوظيفة والمقصد وسياق الاتصال . يعني هذا التسليم المبدئي بكون الكفاية اللغوية قاعدة الاتصال اللغوي بين الناس . المستمع الذي لا يعرف العربية مثلا ستظل المنطوقات عنده معطلة الوظيفة ؛ لأنها محض رطانة أو ضوضاء لا تعني شيئا ، مهما وفر لها المتكلم من قرائن تداولية . والمتكلم بالعربية الذي تعوزه أوليات نظم الجملة بالكيفيات المقررة في نحوها سيظل عاجزا عن أن ينشئ مع مستمعه اتصالا نافعا ، مهما أظهر من قدرة على فقه السياق غير اللغوي ، ومهما احتال على ذلك بوسائل غير لغوية . تبدو المشكلة هنا في كون مركز الكفاية عند تشومسكى البنية الشكلية للغة الطبيعية ، على حين أن التفكير في أثر القرائن الاتصالية التداولية مما ينبغي له أن يحتل مع تلك البنية ذلك المركز .

كان لابد من خفض درجة المثالية في كفاية تشومسكى لمصلحة متطلبات الموقف الاتصالي الاجتماعي المتغيّرة . ينبغي في هذه الحال أن ينظر إلى الصحة النحوية في مواءمتها تلك المتطلبات . صارت العقيدة الفكرية المهيمنة عند محللي الخطاب هي أن مفهوم الصحة النحوية ليس له مقابل مباشر ، وهذا ما نجده مثلا

(١) المرجع نفسه ١/ ٥٦٢ .

عند كالثارد **Coulthard** ومونتجمرى **Montgomery** [١]. كان لابد من عجز نموذج الكفاية اللغوية في النظرية التحويلية التوليدية عن الوفاء بتشخيص العملية الاتصالية الطبيعية ، من حيث إنه جعل همه الفعل اللغوي المعزول عن سياقه . كان لابد من تغيّر التوجهات والمنظورات إلى سياق الاتصال . نرى شيئا من ذلك في مثل قول فولمرت **Volmert** : «عندما تدخل العلامات اللغوية في استخدام لغوي طبيعي ، تكون قد دخلت في سياق اتصالي . وفي السياق تظهر الدلالات الممكنة ، كما أن الوجود المحتمل لما يشار إليه من أشياء يجسم المراد . في الموقف الاتصالي ، لا تستخدم العلامات اللغوية منعزلة ، ولكنها تتعلق بعلامات أخرى. يستطيع المرء أن يكشف في المعجم عن معاني الكلمات المفردة ، ولا يمكنه ذلك في معرفة معاني العبارات والجمل والنصوص . إن معنى الخطاب الحقيقي يتميز تميزا جوهريا عن المعنى المعجمي والمعنى النظامي للكلمة ؛ ففي الخطاب تعيّن معاني الكلمات من خلال السياق الموقفي تعينا مؤكدا ؛ أي يتحدد تنوعها الدلالي . إن مقصد المتكلم الاتصالي ، وقدرته اللغوية ، ومعرفته ونظرته إلى العالم ، تؤثر في اختياره اللفظي الذي هو دائما انتقاء من الإمكانيات التي يتيحها النظام اللغوي»[٢].

إن وضع العلامات اللغوية في تفاعل اجتماعي ، يعني استخدامها استخداما لغويا طبيعيا . في هذا التفاعل تعين المعاني الوظيفية للتعبيرات اللغوية تعينا تاما ، بما تراعى فيه وتتوفر له من قواعد تداولية ؛ أي تلك القواعد الجماعية لاستخدام تلك التعبيرات استخداما عمليا . في الإنجليزية ، تعني الإجابة « **Thank you** »

(١) Coulthard-Montgomery. Op. Cit., p. 82

(٢) Volmert, Johannes (Hrsg.) : Grundkurs Sprachwissenschaft. Wilhelm Fink Verlag. Muenchen (1995) S. 169 .

عن السؤال:

Would you like a cup of tea ?

تعني الإيجاب ، ولكن العكس هو الصحيح في كل من الألمانية والعربية . **Danke** في الألمانية و «شكرا» في العربية ، تعنيان – في الإجابة عن عرض مماثل – النفي . هذا هو المعنى الوظيفي التداولي الذي تكتسبه مثل تلك المفردات والعبارات في محيط التفاعلات اللغوية الاجتماعية اليومية العملية .

لقد ارتاب علماء علم اللغة الاجتماعي في أفكار مثل كفاية المتكلمين الأصليين **Competence of native speakers** وانتقاد أي قبول ضمني لجماعة لغوية متجانسة (١) .

وكان لما استجدّ – منذ الستينيات – في فروع علم الاجتماع ، مثل علم الاجتماع النفسي ، والأنثروبولوجيا ، والإثنوجرافيا ، ونحوها أثر مباشر في تطبيق المنهج الاجتماعي ومعطياته المستمدة من تلك الفروع ، في النظر إلى الاستعمال اللغوي على ضوء المواقف الاتصالية الاجتماعية الفعلية . يقول فان دايك **Van Dijk** : «وجد علماء علم اللغة الاجتماعي تأييدا وحثّا – في هذا المنهج الاجتماعي – على الاشتغال بالصورة الطبيعية لاستخدام اللغة . لقد وجدوا أن الحديث اليومي هو الاستعمال الأوّلى والجوهري في السياق الاجتماعي» (٢) .

صارت دارسة اللغة في الموقف الاتصالي أفقا يجاوز بنية النظام إلى قيمه

---

(١) Van Dijk. Teum A.: Dialogue as Discourse and Interaction, in Van Dijk (ed.): Handbook of Discourse Analysis. Vol. 3 (Discourse and Dialogue) – Academic Press- London (1989) pp. 1-11.p. 7.

(٢) المرجع السابق ص٦ .

ووظائفه التداولية . صارت القوانين التي تحكم كلام الأفراد الاجتماعيين من ذوى الكفاية أعظم مما قيد به مذهب تشومسكى عن كفاية المتكلمين المثالية في معرفة قوانين النحو وتطبيقها .

(أ) مفهوم الكفاية الاتصالية

الكفاية الاتصالية **Communicative Competence** هي البديل المفهومي المنهجي للكفاية اللغوية في النظرية النحوية عند تشومسكى ومن نسج على منواله. بنى ديل هايمز **Dell Hymes** نظريته في الكفاية الاتصالية على أساس ما لحظه من ضيق شديد في مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكى . لا ينبغي – من وجهة نظر هايمز – أن يقف هدف النظرية اللغوية عند وصف كفاية المتكلم المثالية ووصف معرفته بالصحة النحوية . وجد هايمز أن علم اللغة ينبغي له أن يعنّي نفسه بالكفاية الاتصالية . والكفاية الاتصالية عنده تعني مقدرة المتكلم على إنتاج منطوقات مناسبة لأنماط المواقف الاتصالية المختلفة ، لا جمل نحوية [١] .

صار هذا المفهوم شعارا على برنامج ، بل على المنظور الاجتماعي الوظيفي إلى اللغة ، وقاد إلى تحديدات مفهومية مختلفة ، وإن ظل جوهر النظرية .

يعد فوندرليش **Wunderlich** من مؤسسي نظرية الفعل الاتصالي . المعنى المركزي في الكفاية الاتصالية هو الكفاية اللغوية الفردية . وتبدو الكفاية الاتصالية عنده قدرة فاعلة من الناحية اللغوية في نظام من التوقعات الاجتماعية والضبط الاجتماعي . ويعني هذا أداء المواقف الخطابية ، والنطق بالاهتمامات ، وإعادة

(١) Hymes, Dell: Sociolinguisics and the Ethnography of Speaking. In: Ardener, E. (ed.) : Social Anthropology and linguistics. Association of Social Anthropologists Monography 10, Tawistock-London (1971) pp. 47-93, p. 48.

تحديد العلاقات الاجتماعية [١].

ويعّرف بينتنج **Buenting** الكفاية الاتصالية بالقدرة الإنسانية الشاملة على فهم الموقف الاتصالي بين أطراف الاتصال في إطار عوامل أخرى ؛ كالزمان ، والمكان، والعلاقات الاجتماعية ، والعلاقات الخاصة بين أطراف الاتصال (أي الأدوار والأدوار المتوقعة) ، ومقاصد هذه الأطراف ، والقدرة على الفعل ، وأداة الاتصال الموظفة لبلوغ الأهداف (الاستراتيجيات البلاغية **die rhetorischen Strategien**) . يضرب بينتنج على ذلك المثال التوضيحي التالي:

السيدة س ضيف في مطعم (الدور «سيدة» ينتج عن الإطار الاجتماعي . أما الدور «ضيف» ، فينتمي إلى إطار مؤسسي) . هي تتوقع أن يأتي رجل إزاءها ، يقوم على خدمتها في أدب (الدور المتوقع) . وفقًا للأعراف العامة ، ينبغي للنادل أن يبادر بالاعتذار . هذا يعني أنه يريد أن ينجز فعلا اتصاليا . وهدفه هو أن يطابق الدور المنتظر منه ؛ أي أن يكون في الخدمة ، مستعدا . أما وسائله ، فهي:

* الانحناءة (علامة على الطاعة ، وافتتاحا للفعل الاتصالي) .

* إفصاحه اللغوي عما يطلب أكله . وهو إفصاح يناسب الإطار المؤسسي (المطعم) وتوزيع الأدوار (نادل – ضيف) .

في تأمل الكفاية الاتصالية هنا ، ينبغي أن نعرف أن الاتصال طريق يقود إلى تغييرات وإلى علاقات بين أطراف الاتصال في جميع المراحل والمجالات المذكورة ، كما يقود إلى تغييرات في الأوضاع التي يتحدث عنها الإنسان – من حيث المضمون – بمساعدة الوسائل الاتصالية ، لاسيما الرموز اللغوية . من أجل ذلك ،

(١) Lewandowski, op. cit., S. 564.

بحثت الكفاية الاتصالية على أنها القدرة على الفعل الرمزي بين الناس (القدرة على التفاعل الرمزي في إطار نظريات التفاعل) (١).

والكفاية الاتصالية عند باكيه **Baacke** هي القدرة على إنتاج أشكال متباينة من السلوك (اللغوي) . ولا تستهدف هذه القدرة النقد والتغيير على نحو منطقي نزاعي فحسب ، بل تستهدف أيضا تأمين ما هو قائم موجود (٢).

ويبرز هابرماس **Habermas** فكرة صدور الأبنية اللغوية عن مواقف الخطاب الممكنة ، وأن هذه الأبنية في خدمة الموقفية التداولية للتعبيرات اللغوية ، وأن هذه الأبنية تردّ إلى ما يسميه بالعموميات أو الكليات التداولية **Pragmatische Universalien** في كل موقف خطابي (٣).

ويعرّف ديتمار **Dittmar** الكفاية الاتصالية بأنها قدرة الأفراد على أن يتصل أحدهم بالآخر في ظروف محددة موقفيا ومعياريا: لغوية ونفسية واجتماعية وتداولية (٤).

وتعني الكفاية الاتصالية عند سالزمان **Salzmann** المعرفة بما يكون مناسبا أو غير مناسب لما يقال في سياق ثقافي اجتماعي بعينه (٥).

وتبدو المناسبة محور تعريف ليفاندوفسكى أيضا ؛ فالكفاية الاتصالية عنده هي كفاية الاستخدام اللغوي ، وهي القدرة على استخدام اللغة . ولا تتضمن

---

(١) Buenting, op. cit., cit., SS. 236-238.

(٢) Lewandowski, op. cit., S. 564.

(٣) المرجع السابق ص ٥٦٣ .

(٤)Dittmar, op. cit., p. 162.

(٥) Salzmann, Zdenek: Language, Culture and Society: An Introduction to linguistic Anthropology, Westview Press-Oxford (1993) p. 271.

الكفاية الاتصالية المعرفة النحوية فحسب ، بل تضم إليها أيضا معرفة المناسبة الاجتماعية والموقفية للأحداث اللغوية [(١)].

ومهما يكن من أمر ، فإن علاقة المواءمة بين الرموز اللغوية ومركباتها وبين سياق الاتصال هي جوهر التعريفات المختلفة للكفاية الاتصالية . وينبغي وضع هذا المفهوم في إطار مفهوم أوسع سكه هايمز هو «إثنوجرافيا الكلام **Ethnography of Speaking** » (١٩٦٢) من أجل وضع برنامج نظري لتحليل الواقعات الاتصالية في محيطها الثقافي تحليلا وظيفيا (أي مرتبطا بالسياق) وديناميا (أي مرتبطا بالعملية الاتصالية) [(٢)]. كان هايمز قد جعَلَ للوصف الإثنوجرافي مكونات اتصالية عدة ، من أهمها: المشاركون في الاتصال ، والموقف الاتصالي ، وصيغة الاتصال ، والحدث اللغوي ، والموضوع ، ووظيفة التفاعل . وتصلح هذه المكونات لأن تكون إطارًا وصفيا للبحوث في الكفاية الاتصالية للمتكلمين في إطار علم اللغة الاجتماعي [(٣)].

هذا ، ويكتسب أفراد الجماعة الأصليون الكفاية الاتصالية اللغوية الاجتماعية في بطء وفي غير وعي . إنهم يكتسبون معرفة بالنظام اللغوي المناسب ، وإن لم يعوا بالضرورة بالمعايير التي تقود سلوكهم اللغوي الاجتماعي . أما الوافدون إلى الجماعة ؛ كالباحثين اللغويين الاجتماعيين ، فإنهم أسرع في

---

(١) Lewandowski, op. cit., S. 563.

(٢) انظر في تفصل ذلك : محمد العبد (دكتور) : العبارة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال ، دار الفكر العربي (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ص ٥٥-٦٩ .

(٣) رجع في ذلك:

Arens, Hans et. al., : Handbuch der linguistik: Allgemeine und angewandte Sprachwissenschaft, Nymphenburger Verlagshandlung (1987) S. 116 .

اكتشاف تلك المعايير وهم أقوى وعيًا بها [١]. ولا يجوز النظر إلى الكفاية الاتصالية على أنها تلقيح متأخر أو زرع في معارف الطفل ؛ فعلى العكس من ذلك ، أظهرت معطيات متعلقة بالسنوات الأولى لاكتساب القواعد الإنجليزية أن الأولاد يطورون استعمال فوارق الشكل في شتى المواقف والمواضع . وفي الوقت الذي اكتشف فيه شاب أروكانى (Araucan) من تشيلى قواعد الاستفهام في المنظومة اللغوية التي اكتسبها ، اكتشف واقعة أن تكرار ملفوظ استفهامي هو ، من جانب المستمع ، إهانة للمتكلم [٢].

(ب) الأسس النظرية للكفاية الاتصالية

لم يأت تشومسكى بالكافية اللغوية على وجهها من منظور المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي . بالكفاية اللغوية من منظور هذا المنهج أوسع من أن تقتصر على اختيار الألفاظ وحسن سبك الجمل . الكفاية اللغوية من وجهة نظر أصحاب نظرية الكفاية الاتصالية في أن يناسب الاختيار الموقف الاتصالي والمقصد الاتصالي . هذا هو المقياس :ليست الأحكام عن حسن الصياغة الشكلية والدلالية أحكاما ثابتة ومطلقة ، ولكنها أحكام وليدة المواقف الاتصالية الاجتماعية المتغيّرة .

وينطلق تحليل الأحداث اللغوية تحليلا موقفيا من أسس نظرية عدة ، توجز فيما يلي:

---

(١) Fishman, J. A: The sociology of languag, in: pier Paolo Gigioli (ed.): Lan-guage and Social Context: Selected Readings, Penguinn Books- England (1990) pp. 45-58, p. 49.

(٢) غارمادى ، جولييت : اللسانة الاجتماعية ، عرّبه دكتور خليل أحمد خليل ، دار الطليعة – بيروت ط(١٩٩٠م) ص ١٠١ .

١- لا يمكن أن تحلّ بعض إشكاليات النحو الوصفية إلا بعلم الدلالة ،ولا يمكن أن تحل بعض إشكاليات علم الدلالة إلا بالتداولية .

٢- يحول اختزال مجال اللغة في الوصف الشكلي الثابت دون عمل التصورات الإجرائية للاتصال برمته .

٣- لا تفهم اللغة إلا في سياق السلوك الاجتماعي [١] .

وكان فوندرليش (١٩٧٠) قد قيّد إشكاليات سبعًا تثيرها في النظرية اللغوية كفاية المتكلم النحوية التي أغفلت الاعتبارات التداولية:

١- تثبت النتائج الراهنة للبحث اللغوي النفسي ، أن ما يحدث في ذهن المتكلم عند صوغه منطوقاته ، يفوق الصورة البسيطة التي رسمها الطراز النحوي التوليدي .

٢- يتعلم الناس القوانين اللغوية مرتبطة بالمواقف والسياقات .

٣- يكتسب المتكلمون القدرة على خلق مواقف لغوية تفاعلية جديدة كاملة .

٤- لا يمكن أن تفسّر مقولات الشخص والزمان والمكان التي هي من أطر الاتصال القائم على المحادثة في ظروف بعينها ؛ لا يمكن أن تفسّر تفسيرا ذا معنى إلا بالرجوع إلى ملابسات الموقف الكلامي .

٥- عندما لا يطابق الكلام القواعد ، فإن هذا لا ينال من حقيقة استقاء فهم المعاني من المواقف .

٦- كثيرا ما لا يستنبط تفسير معنى المنطوق تفسيرا صحيحا من بنيته النحوية

(١) Dittmar, Norbert: Sociolinguistics: A Critical Survey of Theories and Application. Athenaum Verlag GMB. Frankfurt. (1976) p. 161.

(كأن تفسّر الأحداث اللغوية بأنها التماسات أو تحضيضات .. أو غيرها عن طريق السياق) .

٧- من كفاءة المتكلم التداولية امتثال منطوقاته لمقاصده الكامنة ، وإدراك ما فيها من مخالفات ، وطرحها إذا اقتضت الضرورة (١) .

يكشف تتبع النظرية اللغوية الاجتماعية عن قيامها في جانب منها على النظرية اللغوية : الفونولوجية والنحوية ، وقيامها في جانب آخر على نظرية اللغة في المواقف التي ترتبط فيها العناصر اللغوية بعوامل خارجة عن نطاق اللغة ، وهى عوامل يفرضها السياق الموقفي .

في نظرية الكفاية الاتصالية عولجت المكونات اللغوية التي تعينها المواقف والأدوار . الحقيقة المقررة هنا أن كل كلام في تفاعل لغوي يحتل محيطه الفيزيائي ، كما يحتل موقعه في سياق لغوي خاص ، ويقيد بمحور بعينه ، ويعتمد على الملابسات النفسية المهيمنة (المقاصد و التوجهات) وعلى السمات الاجتماعية التي يتسم بها أولئك الذين يشغلون جانبا من المخاطبة (وضعهم في عملية الإنتاج، وأدوارهم) . ويعني هذا وجود عوامل خارجة عن نطاق اللغة ، تسهم في تنظيم عمليات التفاعل تنظيما لغويا (٢) .

إن الوجه في الكفاية الاتصالية أن الجانبين : النحوي والنفسي ليسا إلا بعض الجوانب التي ينبغي لهذا المفهوم أن يغطيها . يبين هذا المنظور أن حكم تشومسكي

---

(١) Wunderlich, D. :Die Rolle der Pragmatik in der Linguistik, in : Der Deutshunterricht 22 (4) (1970) SS. 5-41, SS . 12-18.

وقارن : Dittmar, Op . cit, P. 161.

(٢) انظر في تفصيل ذلك : المرجع السابق ص١٦٤ .

على المنطوقات بحسب الصحة النحوية أو المقبولية (وهما موازيان لكل من الكفاية والأداء) كان حكما مبسطا للغاية ، وذلك أن المنطوقات ليست صحيحة نحويا أو مقبولة فحسب ، بل ينبغي لها أيضا أن تقوم بمدى نجاحها ومناسبتها للسياق،وبالطريقة التي تكون بها مؤثرة بما هى أفعال ، وبما تؤدي إليه من نتائج[(١)] .

من بين المكونات الضرورية في كل اتصال : الحديث اللغوي عند إرفين ـ تريب **Ervin- Tripp** والشفرة عند ديل هايمز . كل منهما مكون واحد فقط ، يرتبط وجوده وتعين هيئته بمكونات العملية الاتصالية الأخرى ، كالمشاركين ، وقناة الاتصال ، والواقعة الاتصالية ذاتها بأنواعها وملامحها المميزة على الجملة . إلخ[(٢)] .

اختزلت هذه المكونات الضرورية في المعرفة اللغوية الشكلية في قوانين التركيب الجملي . من أجل ذلك ، كان منظور هايمز وزملائه إلى الكفاية أوسع ، لأنه ضم كفاية الشفرة وكفاية مستخدميها . وهى ليست راكدة على منسوب بعينه ، بل تتغير وتتنوع مع الأوضاع والمواقف التي يخوضها المشاركون . الكفاية اللغوية عند الأشخاص مباشرة سلسلة من أنظمة المواجهات **Encounters** على

---

(١) المرجع نفسه ص١٦٣ .

(٢) راجع في ذلك :

Hymes,Dell: Toward Ethnographies of Communication, The Analysis Of Communicative Events, in : Pier Paolo Giglioli (ed.) : Language and Social Context, Selected Readings, Penguin Books, Clays Ltd . England (1990) PP. 22-23 .

مستويات نظر مختلفة . كذلك يراها هايمز[١] . وكذلك تجعل إرفين- تريب تلك المكونات متغيرات تحدد تنويعات الأسلوب واختلافه عند المتكلم[٢] .

وتستند الكفاية الاتصالية عند هايمز على ثلاثة مفاهيم جزئية :

١- مفهوم المخزون اللغوي عند المتكلم (أي القدر من الكلام والأساليب المحددة تحديدا سياقيا) .

٢- مفهوم العادات اللغوية أوالروتين اللغوي (أي تنظيم الحكي تنظيما يوميا متصلا ، وتنظيم التفاعلات اللغوية .. إلخ) .

٣- المحيط الاجتماعي للسلوك اللغوي (أي استعمال التنويعات اللغوية استعمالا محددا تحديدا سياقيا) (كالتنوع أ في محيط الأسرة ، والتنوع ب في بعض المؤسسات ... إلخ) .

تقاس الكفاية الاتصالية (أوالكفاية اللغوية الاجتماعية)- في ضوء هذه المفاهيم الثلاثة – بمقياس ذي بعدين اثنين ، حيث تدرج الأبعاد الأفقية (المفاهيم من ١-٣) على نحو رأسي وفقا لدرجات التحكم اللغوي الثلاث (التقيد ، المرونة، التنوع) . ويمكن ـمن هذا البعد ـ الإشارة إلى ثلاث درجات مختلفة للكفاية الاتصالية :

---

(١)Hymes,Dell : Models of the Interaction of Language and Social Life, in : John J .Gumperz and Dell : Hymes (eds.) : Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, Basil Blackwell, Oxford (1989)PP. 35 – 71, P. 53.

(٢)انظر في تفصيل ذلك :

Ervin-Tripp, S.: Sociolinguistics, in: L. Berkowits (ed.) : Advances in Experimental Social Psychology 4, New York (1969)pp . 91- 165, pp .121-139.

١- الكفاية الصغرى **Minimal Competence** : يعرف المتكلمون بعادة كلامية ما في محيط اجتماعي ما ، من غير تغيير في المخزون أو الشفرة (مقيد **restricted**) .

٢- الكفاية المتوسطة **Average Competence** : يتحكم المتكلمون في مجموعة من العادات الكلامية ليست واسعة ولا قليلة . وهم يعتادون هذه العادات في مجال محدد من مجالات المحيطات الاجتماعية المختلفة ، ويغيرون ـ تبع ذلك ـ مخزونهم اللغوي (مرن **Flexible**) .

٣- الكفاية الكبرى **Maximal Competence** : يغير المتكلمون عاداتهم اللغوية في محيطات اجتماعية عدة ، ويغيرون مخزونهم اللغوي في سعة ويسر (متنوع**Versatile**) (١).

في ضوء مفهوم «المخزون اللغوي» حاول فوندرليش الربط بين السلوك الكلامي وسلوك الدور ، في نموذجه الذي أطلق عليه اسم «الشفرة الكلامية بما هي نظام لاستراتيجيات البلاغة والتأويل **«The speech cods as a system of strategies of rhetoric and hermeneutic»** . عرض في هذا النموذج لأبنية الدور التي تقيد بشروط اجتماعية مادية وبالأبنية العليا (كالمعايير الأيديولوجية ، ونظم القيمة ، وطرق تناول الأشياء .. إلخ) . ويجعل فوندرليش البلاغة والتأويل من وظائف سلوك الدور . والتأويل عنده يعني الافتراضات التي يضعها المتكلمون في مجرى الاتصال (٢).

---

(١) Dittmar, Op. cit., pp. 163-164.

(٢) انظر في تفصيل ذلك:

Wunderlich, op. cit., p. 319 .

(جـ) الكفاية الاتصالية وتعلم اللغة

عند اكتساب اللغة لا يتعلم الطفل الجمل فحسب ، ولكنه يتعلم أيضا قواعد استعمالها في سياقات اجتماعية ثقافية . وقد نظر في حقل تعليم اللغات إلى الكفاية الاتصالية من حيث هي قدرة مركبة من القدرات الفرعية التي حددها ليفاندوفسكى فيما يلي:

١- استيعاب المعلومات وإعادة إنتاجها .

٢- فهم مواقف الكلام بحسب ما تتميز به من درجة العلانية والشكلية والبنية الحركية .

٣- الإسهام في الكلام ومعرفة إمكانيات الأدوار الاجتماعية .

٤- تقويم تأثيرات الوسائل اللغوية والأحداث الكلامية .

٥- فهم متطلبات المشاركين في الاتصال ومشكلاتهم .

٦- التعبير الناجح سواء أكان تعبيرا لغويا أم غير لغوي ، وفقا لمتطلبات المتكلم واهتماماته [١] .

٧- يتفاعل متعلمو اللغة مع متكلم اللغة المنشودة في الكشف عن نماذج اللغة في الأعراف الاجتماعية والثقافية والخطابية ، التي تجعل الخطاب موائما مواءمة تداولية **Pragmatically appropriate** . وإذا لم يستخدم المتعلم اللغة على نحو مناسب تداوليا ، فإنه سيقع في خطر ظهوره في مظهر غير المتعاون ، على الأقل [٢] .

---

(١) Lewandowski, op. cit., S. 564.

(٢) Harlig, K.B. et al., : Developing Pragmatic Awareness, in : ELT Journal, Vol., 45/1 January (1991) Oxford Uni. Press, p.4.

يعد المنهج الاتصالي أحدث مناهج تعليم اللغات . وقد استخدم هذا المنهج استخداما واسعا . ويعد في جانب واسع منه رد فعل على الاعتقاد بأن تعلم قواعد اللغة (نحو اللغة) يتيح القدرة على استعمالها . تبنى التجارب الاتصالية هناك على أساس النظر إلى وظائف اللغة بوصفها واجبة التوكيد أكثر مما ينبغي أن تؤكد صيغ اللغة (أي البنية النحوية الصحيحة والبنية الفونولوجية الصحيحة) . يتميز هذا المنهج بالدروس الموجهة إلى مفاهيم مثل «السؤال عن الأشياء» في سياقات اجتماعية مختلفة على نحو أقوى من تميزه بدروس عن «صيغ الزمن الماضي» في جمل مختلفة . يرتبط هذا المنهج أيضا بمحاولات عرض مواد أقوى مناسبة لتعليم اللغة غير الأم تعليما ذا غاية بعينها (مثل تعليم الإنجليزية للأغراض الطبية أو تعليم اليابانية لرجال الأعمال) [(١)] .

ولا تكون كفاية متعلم اللغة الثانية بحال كفاية تامة . يذكر هذا بفطنة ابن خلدون إلى ما أسماه بـ «الملكة الناقصة المخدوشة» . وهي كذلك عنده إذا سبقتها ملكة أخرى في المحلّ ؛ كالملكة التي تحصل للأعجمي بمدارسة اللسان العربي [(٢)] .

(د) المعايير النحوية والمعايير الاتصالية

رأينا أن كفاية المتكلم/المستمع النحوية ليست إلا مكونا واحدا فقط من المكونات التي تمكنه من الاتصال ، وأن الكفاية الاتصالية أوسع من أن تقتصر على الكفاية اللغوية أو النحوية . إن الكفاية الاتصالية للمتكلم / المستمع في فعل وسيلته اللغوية وتوافق خطابه مع السلوك اللغوي المتنوع والمطابق في ارتباطه

(١) Yule, George: The Study of Language, An Introduction, Cambridge Uni. Press (19966) p. 154 .

(٢) المقدمة ١/ ٥٦٤ .

بالمكونات الاجتماعية والموقفية والنفسية لسياق اتصالي اجتماعي بعينه . من أجل ذلك ، يتوقع نشوب صراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية . يمكن أن نجد ذلك مثلا في متوالية السؤال / الإجابة . تكون الإجابة عن السؤال صحيحة نحويا ولكنها غير مألوفة ، أو هي منحرفة عن حدود قواعد الخطاب المعتادة :

أ : ما هذا ؟

ب : هذا / إنه } كرسي

أ : أين الآلة الكاتبة ؟

ب : الآلة الكاتبة في الدولاب .

من الأمور الملحوظة في وصف بنية التفاعل اللغوي أن حدوس المتكلمين بمتواليات الوحدات التفاعلية السائغة أضعف من حدوسهم بمتواليات الوحدات النحوية التي تسمح بها القواعد . يرجع كالثارد **Coulthard** ومونتجمرى **Montgomery** ذلك إلى أن ما بذل من جهد في دراسة بنية التفاعل ضئيل نسبيا [(١)] . وعلى رغم صحة هذه المقولة في ذاتها ، فهي ليست محددة سبب ذلك . يرجع السبب الجوهري – فيما نرى – إلى تشابك مكونات الكفاية الاتصالية وتعقد العلاقات فيما بينها . العوامل والاعتبارات التداولية ليست مما يتاح لجميع المتكلمين باللغة مجانا . يعمم النحو قواعد اللغة مما ييسرّ الحدس بالصحة أو المقبولية ، ولكن قواعد الاتصال مما تحوج إلى ما أسماه ابن خلدون بالذوق ، أو ما أسماه بولر بالتوافق الخطابي. ولا يتاح للمتكلم السليقى شيء من ذلك إلا بطول

(١) Coulthard L Montgomery, op. cit, p. 82.

التجربة والخبرة بمتطلبات العمليات الاتصالية المتنوعة .

كان من أخطر ما وجه إلى الكفاية اللغوية من انتقادات ، أن يكون المنطوق متمتعا بصحته النحوية ، ولكنه يعجز في موقفه الاتصالي الاجتماعي عن أن يبلغ وظيفته . من ثمّ ، أخذت الكفاية الاتصالية على عاتقها النظرة الوظيفية ؛ أي كيفية تحقق الوظائف والمقاصد من خلال وضع العلامات اللغوية في سياقاتها الاتصالية الاجتماعية المناسبة . وقد مرت العرب بشيء من هذا وشمت روائحه . من ذلك مثلا ما وقع في كلام بشر بن المعتمر : «والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامة . وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال»[(١)] .

في حالات كثيرة يقع الصراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية ، سواء في خطاب المواجهة أم غيره ، وسواء في متواليات السؤال / الإجابة أم في غيرها . من ذلك مثلا ما رواه سيبويه (ت ١٨٠هـ) قال: «حدثنا من نثق به أن بعض العرب قيل له: أما بمكان كذا وكذا وَجدُ؟ (والوجذ موضع يمسك الماء) فقال: بلى وجاذا ، أي أعرف بها وجاذا» [(٢)]. عدّ النصب مقبولا لعلم المخاطب وقدرته على التقدير ، وهو معيار اتصالي تداولي .

ويضاف علم السامع إلى الأثر الإنجازي ليكونا سببين للخروج عن الأصل التركيبي . ومن ذلك ما نراه في باب «الإضمار على شريطة التفسير» . ومن أمثلة

(١) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البيان والتبين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بمصر (١٩٧٥م) ١/ ١٣٦ .

(٢) ابن جني (أبو الفتح عثمان) الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، عالم الكتب – الطبعة الثالثة بيروت (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ١/ ٢٤٩ .

عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) على هذا قول البحتري:

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرماً، ولم تهدم مآثر خالد

قال: «الأصل لا محالة: لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه ... فلا يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله ، فقلت: «لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، صرت إلى كلام غث ، وإلى شيء يمجه السمع ، وتعافه النفس . وذلك أن في البيان ، إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له ، أبدا لطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرّك.

وأنت إذا قلت «لو شئت» علم السامع أنك قد علّقت هذه المشيئة في المعنى بشيء، فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئا تقتضي مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون. فإذا قلت: «لم تفسد سماحة حاتم» ، عرف ذلك المرجع – فيما يبدو – إلى الكفاية الاتصالية في ذكر مفعول المشيئة أو حذفه .

إذا كان الأمر عظيما الأحسن أن يذكر مفعول «المشيئة» ولا يضمر . يقول الرجل يخبر عن عزّة: «لو شئت أن أرد على الأمير رددت» و«لو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم لقيت» . فإذا لم يكن الأمر مما يكبره السامع ، فالحذف كقولك: «لو شئت خرجت» و «لو شئت قمت» ... إلخ[1] .

ومن آليات التأويل النحوي عند سيبويه مفهوم «سعة الكلام» . وقد لجأ إليه سيبويه في كثير من الحالات . من هذه الحالات «القلب» في مثل أُدخل فوه الحجر: قال سيبويه: «وأما قوله: أدخل فوه الحجر ، فهذا جرى على سعة الكلام [والجيد أدخل فاه الحجرُ] ، كما قال: أدخلت في رأسي القلنسوة ، [والجيد أدخلت في

(١) المرجع السابق ص١٦٥ .

القلنسوة رأسي]» [(١)]. وليست سعة الكلام إلا معيارً اتصاليا تعوّل عليه كفاية المتكلم الاتصالية على علم منها بأن كفاية المستمع سوف تكشف بالاستدلال العقلي ما في العبارة من قلب .

يظهر عبد القاهر وعيا بالمعايير الاتصالية في كلامه عن متواليات السؤال/ الإجابة . يستقيم عنده أن يقال: «صالح» و«في الدار» في الإجابة عن السؤالين: «كيف زيد؟» و«أين هو؟» . وينفي عبد القاهر أن يظن بأن لا صحة للإجابة حتى نقول: «إنه صالح» ، و«إنه في الدار» . ويرى أن «ذلك مالا يقوله أحد» [(٢)].

ويقول ابن جني (ت ٣٩٢هـ): «هذا هو القياس: ألا يجوز حذف الحروف ولا زيادتها . ومع ذلك فقد حذفت تارة ، وزيدت أخرى» [(٣)]. يمكن أن ينظر إلى هذه المقولة لابن جني في ضوء الصراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية الواقعية . كان رؤبة معتادا – فيما نقل ابن جني – أن يقول إذا سئل: كيف أصبحت؟ : «خير عافاك (أي بخير)» . ونقل ابن جني أيضا عن سيبويه حكايته: الله لا أفعل، يريد والله [(٤)]. فسر أبو الفتح الحذف في مثل ذلك تفسيرا لغويا تداوليا، فقال: «فأما عذر حذف هذه الحروف فلقوة المعرفة بالموضع» [(٥)].

الخروج عن الأصل فيما سبق مقتاس بمعايير اتصالية تداولية . ويظهر ذلك

---

(١) سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر): الكتاب ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون- دار الكتب العلمية ، بيروت ومكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٣ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ١/ ١٨١ .

(٢) المرجع نفسه ص٣٢٦ .

(٣) الخصائص ٢/ ٢٨٠ .

(٤) المرجع السابق ٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٥) المرجع نفسه٢ / ٢٨٤ .

أن نظرية الكفاية الاتصالية تبدو للبحث النحوي العربي حبيبا جاء على فاقة ، وأنها مما ينبغي له أن يعضَّ عليه بالنواجذ حتى لا يذهب في السمهي !

(هـ) الكفاية الاتصالية والفشل اللغوي التداولي

تقاس قوة الكفاية الاتصالية بالوعي التداولي الذي يتميز به المتكلم والذي يجعل منطوقة ناجحا في سياقه الاتصالي . من مظاهر هذه القوة أن يعي المتكلم أن إعلامه الشيء بغتة ليس مثل إعلامه له بعد التنبيه عليه والتقدمة له . قال عبد القاهر الذي اعتمدنا كلامه هنا مثالا على ما نريد : "« لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام ، في التأكيد والإحكام »[1] . في الوعد والضمان يحسن أن يقال : « أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر » ؛ وذلك ـ كما يقول عبد القاهر ـ أن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به فهو من أحوج شيء إلى التوكيد[2] .

ومن مظاهر هذه القوة أيضا نوع الربط الذي يختاره المتكلم لمنطوقاته في سياقاتها الاتصالية الخاصة . يعي المتكلم هنا بكيفية استقبال المخاطب للمنطوقات ،حتى يختار للربط فيما بينها الربط المنطقي مثلا . من ذلك أن يدَعى المتكلم على المخاطب ظنا لم يظنه ، ولكن يراد التهكم به . يمكن أن نضرب مثلا على ذلك قول حجل بن نضلَة :

جـــاء شـــقيق عارضـــا رمحـــه إنَّ بـــني عمـــك فـــيهم رمـــاحُ

قال عبد القاهر في تأويل البيت: «يقول : إن مجيئه هكذا مُدلا بنفسه وبشجاعته قد وضع رمحه عَرْضا، دليل على إعجاب شديد ، وعلى اعتقاد منه أنه

(١) دلائل الإعجاز ص١٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص١٠٣ .

لا يقوم له أحد ، حتى كأن ليس مع أحد منا رمح يدفعه به ، وكأنا كلنا عزل . وإذ كان كذلك ، وجب إذا قيل إنها جواب سائل ، أن يشترط فيه أن يكون للسائل ظن في المسئول عنه على خلاف ما أنت تجيبه به . فأما أن يجعل مجرد الجواب أصلا فيه فلا »[1].

في ضوء مبادئ نظرية الكفاية الاتصالية (التداولية) نهضت محاولات عدة لاستشراف آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، لعل من أهمها أفق اختبار المناسبة الوظيفية والموقفية للمنطوقات الصحيحة نحويا . لوحظ أن المنطوق يتمتع بحسن السبك ، ومع هذا يبدو ملتبسا وظيفيا أو نافرا سياقيا . وقف باحثون على هذا المشكل ، من أبرزهم رون وايت Ron White . أجرى وايت دراسة تطبيقية للكشف عن هذا المشكل في علاقته باستخدام «من فضلك» عند الناطقين بالإنجليزية من اليابانيين . كان من أهدافه الكبرى تحديد قوانين الأحداث الكلامية التي تطبق في الاتصال بين الثقافات . يمكن لنا أن نعرض الأفكار الجوهرية والنتائج المهمة لدراسته فيما يلي :

١- تعم ظاهرة التأدب جميع الثقافات واللغات ؛ ولكن التعبير عنها يتخذ طرقا شتى ؛ مما أوحى إلى بعضهم أن تعلم التأدب وثيق العرى باكتساب اللغة الأم .

٢- من مشكلات الاتصال بين الثقافات ، أن تحول أعراف التأدب في لغة إلى لغة أخرى . و لا يتعلق هذا المشكل بأسباب لغوية ، إنما يتعلق بالأحرى بأسباب لغوية تداولية ؛ كأن يستعمل المتكلم صيغة لغوية لا توافق مقصده ، فيختلط الأمر على المستمع . فإن كان الاختلاط وقتيا خف الضرر ، وإن تكرر وطال

(١) المرجع السابق ص٢٣٦ .

أمده كانت نتائجه أخطر . ويبدو الأمر مختلفا مع الاتصال بين الثقافات : فما القوانين التي تطبق في التفسير عندما يقترف مستخدم الإنجليزية غير الأصلي ـ عن غير عمد ـ خطأ لغويا تداوليا ؟ (١) .

٣- يبدو استعمال «من فضلك »علامة على التأدب أكثر خداعا مما يتصور المرء . لوحظ أن محاولة الظهور بمظهر أكثر تأدبا ، تقود المتكلم (غير الأصلي) إلى إقحام «من فضلك » في خطابه أناسا أرفع منه اجتماعيا .

ترتبط علة المشكل ـ في نظر وايت ـ بإقحام «من فضلك » على ما قصد به أن يكون عرضا Offer . بعبارة أخرى يحول المتكلمون غير الأصليين ـ دون قصد ـ العرض (وهو حاصل ما يكون عادة لمصلحة المستمع) إلى التماس (وهو حاصل ما يكون عادة لمصلحة المتكلم) . وهذا من انتهاك قوانين الحدث اللغوي (٢) .

٤- العلامة المميزة بين ما يمكن أن يفسَّر بأنه حدث توجيهي وما يفهم على أنه التماس ، هى استعمال «من فضلك » . المعلم الذي يحاول أن يمارس عمله في

---

(١)White, Ron: Saying Please : Pragmalinguistic Failure in English Interaction, EL T Journal, Vol.47/3-July (1993), 0xfod Uni. Press (1993) pp. 193-202,p.193.

(٢) حدد جون سيرل (١٩٧٥) شروطا خمسة لجعل الحدث اللغوي التماسا :

(أ) قدرة المستمع على أداء الفعل .

(ب) رغبة المتكلم في أن يؤدي المستمع الفعل .

(ج) تأدية المستمع الفعل .

(د) رغبته في الفعل .

(هـ) أسباب تأدية الفعل .

راجع وايت ص١٩٤ .

غرفة المعلمين ، سوف يوجّه زملاءه إلى أن يهدءوا إذا قال :

*** أخفضوا أصواتكم !**

أما إذا استخدم أسلوب الاستفهام ، كان منطوقه أدنى إلى أن يفسر بأنه التماس من أن يفسَر بأنه توجيه (وإن كان طلبه إلى زملائه أن يخفضوا أصواتهم يناسب الحالين كلتيهما) :

*** هل يمكنكم أن تخفضوا أصواتكم ؟**

فإذا أضيفت «من فضلك» زال اللبس عن وظيفة الالتماس في منطوق المتكلم:

*** هل يمكنكم أن تخفضوا أصواتكم من فضلكم ؟**

ومثل ذلك أن تضاف «من فضلك» إلى حدث أمري ، فتجعل المنطوق التماسا لا توجيها :

***أخفضوا أصواتكم من فضلكم !**

تستخدم «من فضلك» ـ كما تبين هذه الأمثلة ـ لتلطيف قوة المنطوق .

ويتفق وايت مع ستويس Stubbs في أن الوظيفة الوحيدة ل «من فضلك» هى أنها علامة على التأدب أو التلطف ، وأنها تفاعلية بالضرورة [(١)] . يضع وايت قيدا على الحدث اللغوي الذي يمكن أن تقع معه «من فضلك » . هى تقع مع جملة

(١) يقول ستويس : «إنها عبارة وظيفية ؛ و ذلك أن وظيفتها الوحيدة هى أنها علامة على التأدب أو التلطف وليست لها أي خاصية موضوعية : فهى ليست عن أي شيء ما ، ولذا كانت مقيدة باللغة المنطوقة إلى حد بعيد » .

Stubbs, Michael: Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis Of Natural Lan-guage, Basil Blackwell, Oxford (1989) p. 72.

تقبل أن تفسَّر بأنها التماس ، و لا تقع مع منطوقات تقبل أن تفسَّر بأنها تبليغات أو وعود أو عروض أو دعوات أو تهديدات [١] .

٥- يظهر الفشل اللغوي التداولي فيما انتهى إليه وايت ، في دراسته التطبيقية قي أشكال عدة ، هى :

(أ) أن يستخدم المتكلم «من فضلك» التي للالتماس في منطوقات يعطى فيها توجيهات إلى المستمع ، نحو :

من فضلك ، خذ المنفذ الغربي ثم در يميتا . من فضلك انزل أسفل كوبري السكة الحديدية (في وصف كيفية الوصول إلى مطعم بعينه) .

هنا لا يلتمس المتكلم من المستمع أن يتخذ المنفذ الغربي ولا أن ينزل أسفل الكوبري ، بل يعطي توجيهاته إلى المستمع ، حتى يفعل هذا . الإبلاغ هنا لمنفعة المستمع لا المتكلم . وهنا تحدد قدرة المستمع على أداء الفعل باستقبال المستمع توجيهات المتكلم .

المتكلم	
صيغة المنطوق	الوظيفة المقصودة
التماس: «من فضلك خذ المخرج الغربي	إعطاء توجيهات
المستمع	
الصيغة المتوقعة	الوظيفة المفترضة
أمر: «خذ المخرج الغربي»	إعطاء توجيهات

الوظائف المقصودة والوظائف المفترضة

(١) White, op. cit., p. 195.

يلحظ وايت - ونشاركه ملحوظته – أن المتكلم باستعماله «من فضلك» يوقع المستمع في حيص بيص ؛ وذلك أن صيغة المنطوق السطحية هي صيغة الالتماس ، ولكن الوظيفة المفترضة هي إعطاء توجيهات . من هنا يستقبل المستمع رسالة محرَّفة Garbled Message . يعى المستمع بالطبع أن المتكلم مؤدب، ولكن هذا الوعي ذاته لن يمنع المستمع من الشعور – نوعا ما – بعدم الراحة ؛ لأن ورود «من فضلك» مع الأمر ، يستحضر أحد الشروط التي تحكم الالتماس ، وهو رغبة المتكلم في أن يؤدي المستمع الفعل ، ولأن المتكلم – في هذه الحالة – يقود المستمع . من أجل ذلك ، يبدو التوتر الناتج عن استعمال «من فضلك» أبلغ أهمية . وبناء على ذلك ، يعد المتكلم فاشلا فشلا لغويا تداوليا ؛ لأنه خلق توترا فيما كان مقصودا به أن يكون حدثا وديا friendly act ؛ وهو تقديم توجيهات إلى كيفية الوصول إلى مطعم قريب من منزل المستمع . وقد نتج التوتر عن الفشل في تحقيق المطابقة بين الصيغة والوظيفة ، مما أدى إلى مشكلة اتصالية .

أما متكلم اللغة الأصلي native ، فسوف يستعمل الأمر مستغنيا عن «من فضلك» .

(ب) وقد ينشأ الفشل اللغوي التداولي من وضع «من فضلك» في منطوق لا يقبل أن يفسَّر بأنه توصية أو التماس ، كقول المتكلم:

*** تفقد عملية التخزين في العقار الجديد ، من فضلك!**

ونرى هذا في موقف اتصالي يتساوى فيه المتكلم والمستمع في المكانة من ناحية ويظهر فيه المستمع من ناحية أخرى رغبته في أن يؤدي هذا الفعل ألفيًا . يجد المستمع آنذاك في التماس المتكلم هجومًا زائدًا ؛ لأن أداء الفعل كان من برنامجه،

ولم يكن جزءا من رغبة متضمَّنة في التماس المتكلم . في هذه الحال ، ينشأ توتر عن سوء استعمال «من فضلك» ، ويؤدي إلى مشكلة اتصالية وإلى فشل لغوي تداولي.

في مثل هذا الموقف يقول ابن اللغة شيئا نحو:

*** إذن ، لا تنس أن تتفقد عملية التخزين .**

(جـ) وفي موقف اتصالي آخر ، كان المتكلم أقل منزلة من المستمع ، وكانا غادرا المكتب إلى السوق يشترين بعض الأغراض المنزلية . وفي العودة إلى المكتب، فكر المتكلم في أن يشتري بعض الأشياء لمكتبه ، فقال للمستمع:

*** سأشتري بعض الأشياء من هنا . من فضلك عد أنت إلى المكتب!**

يجعل رون وايت منطوق المتكلم ملحوظة خاطئة ؛ وذلك أن المتكلم افترض أن المستمع يرغب (أو يختار) أن يؤدي الفعل المطلوب . أسئ هنا مراعاة الوضع Status الذي يفصل بين المستمع والمتكلم ؛ فالمتكلم ليس من مكانة تؤهله لأن يعبّر عن رغبته ، أو أن يفرض هذه الرغبة على المستمع في أداء فعل بعينه . إنه في مكانة عرض اقتراح بأن يكون الإذن للمستمع أن يعود إلى مكتبه ، وأن يشتري هو بعض الأشياء . يتوقع هنا أن يكون نهج المتكلم السليقى بالإنجليزية هو استعمال الأمر مستغنيا عن «من فضلك» :

*** لا تقيّد نفسك بي!**

*** لا تزعج نفسك بانتظاري!**

يضع هذا الأمر المستمع – لا المتكلم – في وضع المستفيد . أما الالتماس ، فهو – كما علمنا – لمصلحة المتكلم من حيث إنه حقا المستفيد .

وإذا كان قصد المتكلم بأداء الفعل إلى مصلحة المستمع أعظم من قصده إلى

مصلحته ، وأن يكون متعاونا معه ، فإن إبانته عن مقصده لم تبلغ الوضوح . من ثمّ كانت هذه الحالة من حالات الفشل اللغوي التداولي .

(د) في هذه الحالة يُعرض المتكلم الموقف الاتصالي للَّبس ؛ وذلك بأن يلتمس من المستمع أداء فعل أعرب المستمع عن رغبته في أن يؤديه من قبل:

المستمع إلى المتكلم: **يمكنني أن آخذ هذه الآلة إلى الدور الأرضي .**

المتكلم إلى المستمع: **بلى . من فضلك خذها إلى الدور الأرضي .**

يعطي التماس المتكلم انطباعًا بأنه أساء الحكم على معرفة المستمع بالعالم وعلى ذكائه . يرى وايت أن ما رغب المتكلم في أدائه ، كان من أجل إثبات قدرة المستمع على أن يأخذ الآلة إلى الدور الأرضي . ويتوقع هنا أن يقول المتكلم الأصلي:

* **بلى ، يمكنك أن تأخذها إلى الدور الأرضي .**
* **بلى ، هذه الآلة تنزل إلى الدور الأرضي .**
* **بلى ، يمكنك .**

إن استعمال المتكلم الأمر في صحبة «من فضلك» قد عرض الموقف للبس لا الإيضاح . من ثم عُدَّت هذه الحالة من حالات الفشل اللغوي التداولي [(١)].

(هـ) لم يكن الموقف الاتصالي السابق موقفا علنيا ؛ لأنه ضم شخصين اثنين فقط ، ولم تكن هناك أطراف أخرى . في هذا الموقف يبدو الفشل اللغوي التداولي في هيئة ارتباك . يقدم المتكلم – وهو رئيس الجلسة – ضيفه في مؤتمر أو في حلقة بحث قائلا :

(١) المرجع السابق ص١٩٨ .

*** الأستاذ س ، من فضلك ابدأ كلامك!**

يبدو الفشل اللغوي التداولي هنا في التماس المقدِّم من ضيفه أن يبدأ كلامه في الوقت الذي لا يصلح فيه مع مثل هذا الحدث اللغوي أن يكون التماسا أو إصدار تعليمات . إنه حدث دعوة ؛ لأن المتكلم يدعو ضيفه – على نحو رسمي – إلى أن يأخذ دوره . ليس الالتماس ولا إصدار تعليم الحدث اللغوي المناسب لأداء هذه الوظيفة . هذا نوع من فقدان المناسبة Inappropriateness . يرجع هذا إلى استعمال «من فضلك» في حدث دعوة ؛ أي استعمالها في حدث لا يمكن أن تستعمل فيه . يتوقع في مثل هذا الموقف ، أن يقول المتكلم المقدِّم شيئا نحو:

*** الآن أود أن أدعو الأستاذ س ليحدثنا عن ...**

*** والآن بعظيم السرور أدعو الأستاذ س إلى أن يبدأ كلامه عن ...**

*** الأستاذ س ، يسعدني سعادة بالغة أن نستهلّ حلقة البحث ببحثكم عن ..**

أساء المتكلم المقدِّم استعمال «من فضلك» ؛ لأنه لم يحقق المواءمة بين مقصده وتأثير كلماته . وإذا كان يرى في استعماله «من فضلك» نوع تأدب ، فإن المستمعين يرون في ذلك نوع تكلف أو مصانعة [(١)] .

لم يكن استعمال «من فضلك» فيما سبق موائما أنواع الأحداث اللغوية في تلك المواقف الاتصالية . لم يحقق المتكلم المواءمة بين مقصده وصوغ منطوقه . كان أداء الفعل المشار إليه في منطوق المتكلم لمصلحة المستمع لا المتكلم ، على رغم أن المنطوق الذي يأخذ صيغة الالتماس ، تعود المصلحة فيه إلى المتكلم . وإذا كان المستمع قادرا – في تلك المواقف – على تفسير مقصد المتكلم وأنه قصد أداء فعل

(١) المرجع السابق ص١٩٩ .

بعينه ، فإنه لا يمكن تجاهل أثر فقدان المواءمة في خلق شعور التوتر والاضطراب في نفس المستمع ، وربما أدى إلى سخطه وتكدير صفو علاقته الخطابية بالمتكلم .

ينبه ما تقدم إلى حقيقة جوهرية ؛ هي وجوب العناية بالاستعمال الاتصالي للصيغة اللغوية ، لا الوقوف عند الصيغة في ذاتها . لا يكفي هنا مثلا أن نعلم المتعلمين أن «من فضلك» علامة تأدب ، أو أن أفعالا مثل «يمكن» و«يقدر» ونحوها مما يستخدم لتخفيف المعنى ، أو أن هناك عبارات موروثة لبسط العلاقات الاجتماعية في مناسبات خاصة . ليست لهذه المعرفة اللغوية في ذاتها أهمية ، وإنما ينبغي أن تختبر من خلال المقام . ويتضمن الأخذ بالمقام Contextualization إدراك الشروط التي تستخدم فيها مثل تلك التعبيرات لبناء التفاعل وتنظيمه وتوجيهه .

(و) الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية في موقف الإنشاد

رأينا أن الكفاية الاتصالية هي القدرة على استعمال اللغة في تفاعل اجتماعي يواءم فيه بين المنطوقات والمقاصد وسياق الاتصال . ولا تبنى الكفاية الاتصالية على أساس مكونات المعرفة النحوية فحسب ، ولكنها تبنى أيضا على أساس معرفة وجوه التناسب الاجتماعي والموقفي للأحداث اللغوية . ويكتسب الناس آليات تمكن من تحقيق قوانين الخطاب ، ويجرون على منحى أعراف تصنع خلفيات سلوكهم اللغوي . من ثمّ ، عد الخروج على ذلك كله فشلا لغويا تداوليا . من أعراف الخطاب في المجتمع العربي مثلا ، ألا تخاطب الملوك بأسمائها إعظامًا لها ؛ يقول ابن جني : «وذلك أن أصغر الناس قدرا قد يخاطب أكبر الملوك محلاً بالكاف من غير احتشام منه ، ولا إنكار عليه . وذلك نحو قول التابع الصغير للسيد الخطير: قد خاطبت ذلك الرجل ، واشتريت تينك الفرسين ، ونظرت إلى

ذينك الغلامين، فيخاطب الصاحب الأكبر بالكاف، وليس الكلام شعرا فتحتمل له جرأة الخطاب فيه ، كقوله: لقينا بك الأسد ، وسألنا منك البحر ، وأنت السيد القادر ، ونحو ذلك .

وعلة جواز ذلك عندي أنه إنما لم تخاطب الملوك بأسمائها إعظاما لها ؛ إذ كان الاسم دليل المعنى ، وجاريا في أكثر الاستعمال مجراه ، حتى دعا ذاك قوما إلى أن زعموا أن الاسم هو المسمى . فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجافوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم التي هي شواهدهم ، وأدلة عليهم ، إلى الكناية بلفظ الغيبة ، فقالوا: إن رأى الملك أدام الله علوّه ، ونسأله حرس الله ملكه ، ونحو ذلك ، وتحاموا: إن رأيت ، ونحن نسألك ، لما ذكرنا» [(١)] .

تشهد مصادر نقد الشعر العربية على أن نقاد الشعر العربي ، قد فطنوا إلى اعتبارات ومعايير اتصالية تداولية مهمة ، ينبغي للخطاب الشعري – لاسيما في مواقف الإنشاد العلنية – أن يراعيها ، وإلا سقط الشاعر ضحية فشله اللغوي الاتصالي الاجتماعي مهما كانت كفايته اللغوية الخالصة . من علل حسن الشعر وقبول الفهم إياه عند ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) : «موافقته للحال التي يعد معناه لها؛ كالمدح في حال المفاخرة ، وحضور من يكبت بإنشاده من الأعداء ، ومن يسرّ به من الأولياء» [(٢)] . ويبدو مبحث (مفتتح الشعر) عنده مثالا دالا على سبق النقاد العرب المقدمين إلى الوعي بدور المعايير الاتصالية التداولية في تقويم الوظائف الاجتماعية والجمالية للخطاب الشعري . وما قاله ابن طباطبا ترك

(١)الخصائص ، بتحقيق محمد علي النجار ٢/ ١٨٨ .

(٢) ابن طباطبا (أبو الحسن محمد أحمد) : عيار الشعر ، شرح وتعليق عباس عبد الساتر ، مراجعة نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ص ٢٢ .

صداه بين النقاد ومؤرخي الأدب بعده ، فنقلوا عنه ، وجعلوا ملحوظاته من محددات التمايز في صناعة الشعر . من هؤلاء مثلا أبو عبد الله المرزباني (ت ٤٨٤هـ) [١] وأبو هلال العسكري (ت بعد عام ٤٠٠هـ) [٢].

يذكر هؤلاء الثلاثة: ابن طباطبا والمرزباني وأبو هلال العسكري طائفة من مطالع قصائد المدح ونحوها ، هذه المطالع التي لم يحترز فيها أصحابها مما يستجفى من الكلام والمخاطبات . ويمكن أن نعيد تصنيف تلك المطالع في إطار ما ترتبط به من عوامل الموقف الاتصالي ، على النحو التالي:

١- مراعاة مكان الاتصال

والمكان هنا بمعناه الاجتماعي لا الإقليمي . نعنى هنا الأماكن الاجتماعية ؛ كالمكتب ؛ والشارع ، والبلاط الملكي ، ونحوها . ينبغي لنا هنا أن نعرف إن كان المكان اختير اختيارا عشوائيا أو اختيارا عن قصد ، وإن كان محايدا أم خاصا ، وما قد يرتبط بذلك من أهميته الاجتماعية عند أطراف الموقف الاتصالي ، وعلاقته بموضوع الكلام .

من ذلك مثلا ما يروى أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية ، جلس فيه ، وجمع الناس من أهله وأصحابه . وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج . وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسيفساء الذي كان في صدره صورة العنقاء ، فجلس على سرير مرصّع بأنواع الجواهر ، وجعل على رأسه

(١)انظر: المرزباني (ابو عبد الله محمد بن عمران بن موسى) : الموشح ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي – القاهرة ، د. ت ٢/ ٣٠١ وما بعدها.

(٢) انظر: العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله) : كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية – بيروت (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦) ص ٤٣١ وما بعدها . .

التاج الذي فيه الدرة اليتيمة . وفي الإيوان أسرّة أبنوس عن يمينه وعن يساره ، من عند السرير الذي عليه المعتصم إلى باب الإيوان ، فكلما دخل رجل رتّبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم» [(١)] .

في مثل هذا المكان وملابساته يقبل أن تطرح موضوعات بعينها في كيفيات خاصة ، كما ينبغي تجنب الكلام في موضوعات أخرى مهما أوتى المتكلم من علم بالعلل . في هذه الحال لا يليق أن يجعل إسحاق بن إبراهيم مطلع قصيدته هكذا:

يـا دار غيّـرك البلـى فمحـاك يا ليت شعري مـا الـذي أبـلاك؟

عندما ينشد مثل هذا المطلع في مكان هذه صفته ، لن يكون تفاعل الحضور معه إلا أن تطير المعتصم ، وتغامز الناس ، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك [(٢)] . قال أبو محمد أحد من شهد اليوم: «فأقمنا يومنا هذا ، وانصرفنا ، فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس ، وخرج المعتصم إلى سرّ من رأى ، وخرب القصر!» [(٣)] .

وكذلك كانت وجوه التفاعل مع مبادئ قصائد أخرى ؛ كابتداء قول الأعشي:

مـا بكـاء الكـبير بـالأطلال وسـؤالي وهـل تـردّ سـؤالي

دمنـة قفـرة تعاورهـا الـصيـ ف بـريحين مـن صـبا وشمـال

وقول أبي نواس:

---

(١) المرجع السابق ٤٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص٤٣٢ .

(٣) المرجع السابق ص٤٣٢.

أربعَ البلى إن الخشوع لبادي عليـك وإنـي لم أخُنْـك ودادي

فقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي قوله ، وتطيّر منه ، فلما انتهى أبو نواس إلى قوله:

سلام علـى الـدنيا إذا مـا فقـدتُ بنى برمك مـن رائحـين وغـادى

استحكم تطيره . يقال إنه لم ينقض إلا أسبوع حتى نزلت به النازلة [1] .

٢- مراعاة حال المخاطب

وذلك في كل ما له بالخطاب علاقة ؛ كاسمه أو اسم أحد من أهله ، وعمره ، وخلقه ، وخلقته ، وعمله ، والوضع الذي يكون عليه المخاطب: جسمانيا كان أم نفسيا أم عقليا . من الأمثلة على ذلك ما روى أن أرطاة بن سُهيَّة المرّى دخل على عبد الملك بن مروان ، وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة – وقال بعضهم ثلاثون ومائة سنة – فقال له عبد الملك: ما بقى من شعرك يا ابن سهيَّة ؟ فقال: والله ما أشرب ، ولا أطرب ، ولا أغضب ، ولا يجئ الشعر إلا على مثل هذه الحال . وقال بعضهم: إلا مع إحدى هذه الخلال – وإني على ذلك للذي أقول:

رأيـت المـرء تأكلـه الليـالي كأكـل الأرض سـاقطة الحديـد

ومـا تبغـي المنيـة حـين تـأتي علـى نفـس ابـن آدم مـن مزيـد

وأعلـم أنهـا سـتكرّ حتـى تـوفى نـذرها بـأبي الوليـد

وكان أرطاة يكنى أبا الوليد ، فارتاع عبد الملك ، وكان أيضا يكنى بأبى الوليد ، واشتد عليه ، وتغير وجهه ، وظن أنه يعنيه . فقال: لا ترع يا أمير المؤمنين! إني لم أعنك ، وإنما عنيت نفسي ؛ أنا أبو الوليد . فقال عبد الملك: وإياي

(١) عيار الشعر ص ١٢٦- ١٢٧ وقارن: الصناعتين ص ٤٣١ .

والله لتوفينّ بي نذرها [1]. وفي عيار الشعر: «فقال له عبد الملك: ما تقول ثكلتك أمك؟ فقال: أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين . وكان عبد الملك يكنى أبا الوليد أيضا ،فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبد الملك إلى أن مات» [2].

ودخل المصور العنزي على زياد ، فقال له زياد: أنشدنا . فقال: من شعر من؟ قال: من شعر الأعشى . فأرتج عليه إلا قوله:

رحلت سميَّة غدوة أجمالها غضبي عليك فما تقول بدالها ؟

قال المصور العنزي: فقطب زياد ، وعرفت ما وقعت فيه [3]. وما وقع فيه العنزى أنه أنشد زيادا بيتا كان فيه اسم أمه «سمية» ، على رغم أنه من شعر غيره!

وعن أبي نصر أحمد بن حاتم ، قال: بلغني أن الفرزدق دخل على عبد الملك ابن مروان ، فقال له: من أشعر أهل زماننا؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين . قال: ثم من؟ قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة .قال: ثم دخل عليه جرير بعد ذلك ، فقال له : من أشعر أهل زماننا ؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين . قال: ثم من ؟ قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة . فأحب عبد الملك أن يراه لقولهما ، فوجه إليه، فجئ به . فقال: أنشدني أجود شعرك ، فأنشده:

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سربُ

قال: وكانت عينا عبد الملك تسيلان ماء . قال: فغضب عليه ونفاه . فقيل له: ويحك ! إنما دهاك عنده قولك:

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ

---

(١) الموشح ص٣٠٥ .

(٢) عيار الشعر ص١٢٨ .

(٣) الموشح ص ٣٠٢ .

فاقلب كلامك . قال: فصبر حتى دخل الثانية . فقيل له: أنشده ، فأنشد:

ما بال عـيني منهـا المـاء ينـسكبُ

حتى أتى على آخرها ، فأجازه وأكرمه [(١)] .

وأحسب أن الكلام – على رغم قلبه – مازال يلمح في موقف اتصالي إنشادي علني إلى علّة الممدوح . وربما كانت الزيادة عن قلب الكلام من وضع الرواة .

وعن محمد بن يزيد النحوي قال: حدثت في إسناد متصل أن أبا النجم العجلي أنشد هشاما:

والشمس قد صارت كعين الأحول

وذهب عنه الرويّ في الفكر في عين هشام ، فأغضبه فأمر به فطرد [(٢)] .

٣- العلاقة بين أطراف الاتصال

وهي تضم عناصر عدة ، مثل درجة التعارف ، وتوزيع الأدوار ،أو الأدوار المتوقعة . المهنة والمكانة من أهم المحددات الاجتماعية للمشتركين في عملية الإنتاج اللغوي . تعين هذه المحددات حقوقهم وواجباتهم وامتيازاتهم . ويرى ديتمار Dittmar أن محددات اجتماعية مثل الاحترام ، أو الألفة ، أو الكراهية ، أو غيرها مما يشخص العلاقة بين المتكلمين ، تعد عوامل حاسمة في تحديد السلوك اللغوي (صيغ التأدب ، واستعمال اللغة المعيارية في مقابل اللهجة) [(٣)] . ومن طريف ما يذكره سالزمان Salzmann أن الذوق اللغوي عند الجاويين يجعل الجملة الواحدة

(١) المرجع السابق ص ٣٠٢-٣٠٣ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠٤ .

(٣) Dittmar, op. cit., p. 165.

تسمع في ستة مستويات كلامية مختلفة وفقا للعلاقة الاجتماعية بين المتكلمين ووفقا لعوامل أخرى ترتبط بمن يأخذ جانبا في الحوار [١].

لم تراع جوانب هذه العلاقة في بعض حالات إنشاد الشعراء ممدوحيهم ؛ من ذلك ما يرويه أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي ، قال: لما أنشد جرير عبد الملك:

أتـصحو بـل فـؤادك غـير صـاح

قال: بل فؤادك يا ابن اللخناء [٢].

معلوم أن مواقف الإنشاد ليست مواقف اتصالية حقيقية على النحو الذي تتبادل فيه الأطراف الرأي والحوار . وعلى رغم ذلك وقع الشاعر في خطر غفلته عن تحري ما يلزم الخطاب به في موقف إنشادي علني ؛ لأن خطابه سينصرف إلى ممدوحه وإن كان في أصله من خطاب الشاعر نفسه . هذا ما نجده في الحالات السابقات ، كما نجده في مثل إنشاد الأخطل عبد الملك:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا

قال عبد الملك: بل منك ، لا أمّ لك . وتطّير عبد الملك من قوله ، فعاد فقال:

...فراحـوا اليـوم أو بكـروا [٣].

ومن ذلك أيضا إنشاد البحتري أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري قصيدته التي أولها:

---

(١) Salzmann, op. cit., p. 181

(٢) الموشح ص ٣٠٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

لك الويل من ليل تطاول آخره ووشك نوى حيّ تزمّ أباعرهُ

فقال له أبو سعيد: الويل لك والحرب [١].

ينبغي للوضع فيما سبق أن يبدو هكذا: شاعر (مادح) / ملك (ممدوح) . ويبدو الدور هكذا: (شاعر) ضيف / (ملك) مضيف . الشاعر هو الذي يؤمر به أن يأتي إلى بلاط الملك ، ينشده ويمدحه . ووفقا للأعراف المتبعة ، ينبغي للشاعر أن يتحلى بالكياسة والأدب . وينبغي أن يحقق لهدفه مزيّة أن يطابق سلوكه اللغوي الدور المنتظر منه . أما الوسائل ، فربما كانت الانحناءة ، أو الاستئذان في الإنشاد ، أو هما معا علامات على افتتاح مثل هذا الموقف الاتصالي الإنشادي . ويعقب هذا التعبير اللغوي الذي يناسب الإطار المؤسسي (بلاط الملك) ويناسب توزيع الأدوار (شاعر – ملك) .

ومن القوانين اللغوية الاجتماعية التي صارت نمطية في المناهج الأنثروبولوجية، ما يسمى بقوانين التناوب Alternation rules التي تضم – مع أشياء أخرى – مشخصات العلاقة بين المتكلم والمخاطب ؛ كعلاقات الدور والعمر والقرابة . ومن خواص الموقف أن يكون وديا أو رسميا أو غير رسمي . ولا تسمح نظم الخطاب اللغوية الاجتماعية مثلا ، بأن يوجه المتكلم الشاعر إلى المستمع الملك سؤالا ، على نحو ما رأينا في مطلعي ذى الرمة وجرير ؛ وذلك أن السؤال – كما يلحظ لابوف Labov – يفسّر على أنه التماس للإخبار ، الذي يمكن هو الآخر أن يفسّر على أنه مطالبة أو مناهضة Challenge [٢].

---

(١) عيار الشعر ص١٢٧ .

(٢) Labov. W.: The Study of Language in its Social Context, Studium Generale 23 (1) (19970) pp. 30-58, p.83.

تتخذ المواقف الاتصالية الإنشادية السابقة صورة شاعر يمدح وملك يستجيد فيجيز ، أو لا يستجيد فلا يجيز . بيد أنها لا تخلو من دلالة على أن الشعراء أصحاب المطالع المعيبة اتصاليا ، لم يراعوا عند إنشادها – على رغم تقديمهم في الطبقة – الفرق الجوهري بين جماليات فعل النظم التي تحكمها الكفاية اللغوية وجماليات فعل تحول المنظوم إلى خطاب ، تلك التي ينبغي للكفاية الاتصالية أن تكون المسئولة الحقيقية عنها . تعامل هؤلاء الشعراء فيما أنشدوه من مطالع بين أيدي الملوك ومن في الحضرة ، مع اللغة المحكومة بنظامها ، ولم يتعاملوا مع اللغة في وظيفتها الاجتماعية المحكومة باستراتيجيات التفاعل . من ثم ، ظهروا جميعا وقد ذهبت عنهم كفايتهم الاتصالية على رغم ما عرضوا جميعا من كفاية لغوية .

لقد فات الشعراء المذكورين المعرفة بأعراف الاتصال . والعرف أملك ، كما يقول عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) [(١)] . والأعراف متغيرة موقفيا وتاريخيا . وهذه فرصة لعمل الذوق . وأحسب أن بيتا في المدح كقول الشاعر:

أنت كالكلب في حفاظك للعهـ ـد وكالتيس في قراع الخطوب

مما لا يرضاه لنفسه في عصرنا ملك يذوق الكلام ، مهما كانت الغاية فيه والمقصد!

هكذا يظهر المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي تحولا من النظر إلى اللغة بالمنهج العقلاني الذي انحاز إلى وضع نظريات في الكليات اللغوية المجردة التي تحكمها البنية العقلية الموروثة عند الإنسان ، مهملا تفسير اللغة في ضوء حقائق أخرى غير لغوية ، إلى النظر إليها في وضعها الواقعي الاستعمالي الذي تتكيف فيه المنطوقات مع وظائفها السياقية الاجتماعية الثقافية الطبيعية . إنه – بالأحرى–

(١) البغدادي (عبد القادر بن عمر) : خزانة الأدب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الكاتب العربي – القاهرة (١٣٨٩هـ -١٩٧٣م) ٣/ ٤٦٤ .

تحول منهجي يعكس – فيما نحسب – تحولا أعمق في النظر إلى وظيفة اللسانيات ذاتها على النحو الذي نراه في مثل إشارة دو بوجراند إلى أنه «ينبغي للسانيات إذا لم تتلاش بسبب عزلتها من حيث هي حقل للبحث ... أن تصبح علما محوريا للخطاب والاتصال [1].

إذا كانت الكفاية اللغوية باللغة ، فإن الكفاية الاتصالية طرف منها بالغة وطرفها الآخر – في الوقت نفسه – بسياق الاتصال الذي تستعمل فيه .

(١) النص والخطاب والإجراء ، ص٧١ .